الرجل الذي مات

تأليف : د . هـ . لورانس ترجمة : د . رمسيس عوض



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول: يناير ١٩٤٩

ثمن النسخة

سوريا ١٦٠ ليره - لبنان ١٠٠٠٠ ليره - الاردن ٣٧٥٠ فلسا - الكويت ٢٠٠٠ فلس - السعودية ١٨ ريالا - البحرين ١,٨٠٠ دينار - قطر ١٨ ريالا - دبى / ابو ظبى ١٨ درهما - سلطنة عمان ١,٨٠٠ ريال .

العدد ٥٨٣

يوليو ١٩٩٧ ● ربيع أول ١٤١٨ هـ

No-583-JUL-1997

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه

الاسكندرية

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٥٥ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - امريكا واروبا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولار .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول : الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت ٤٧٤١١٦٤

الادارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب . ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 hilal u n

فاكس : FAX 3625469

« الرجل الذى مات »

تأليف د. هـ . لورانس

ترجمة وتقديم د. رمسيس عوض

●

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية

THE MAN WHO DIED

by

D.H. LAWRENCE

الغلاف للفنانة :

سميحة حسنين

قبل أن تقرأ

مات د. هـ . لورانس فى عام (١٩٣٠) أى بعد عام واحد من نشر قصته «الرجل الذى مات» (١٩٢٩) التى كانت فى الأصل تحمل عنوان «الديك الهارب» . تدهورت صحته آنذاك على نحو مروع وكان الموت يحلق فوق جسده . وباقتراب شبح الموت منه زاده ذلك استمساكا بالحياة . يقول النقاد إن وصفه لقيامة المسيح من القبر فى قصته وهو فى حالة من الاعتلال والانهيار الشديد لم يكن سوى وصف على الصعيد الشخصى لحالته الصحية المتهالكة . يقول لورانس عند شعوره بدنو الموت منه :

«إننى بكل بساطة أعانى من تغير فى الحياة ونوع غريب من الارتداد كما لو كانت روحى ترتد إلى الخلف نائية عن الاتصال بكل شىء . ذلك كان بمثابة اليوم الذى وضعوا فيه يسوع المسيح فى القبر . وفى واقع الأمر بدأت هذه الأيام الثلاثة التى قضاها يسوع فى القبر تكتسب معنى فظيعا مروعا بالنسبة لى وتصبح حقيقة ماثلة أمامى» .

ويحدثنا لورانس عن قصته قائلا :

«ألفت قصة عن القيامة حيث تصورت المسيح ينهض من قبره شاعرا بالغثيان الشديد من كل شيء ولم يعد باستطاعته أن يتحمل جموع البشر التى تبعته فيما مضى ومع إبلاله من مرضه أخذ يدرك كيف أن عالم الظواهر عالم يبعث على الاندهاش وكيف أنه أكثر مدعاة للدهشة من الخلاص والجنة . وشكر المسيح حسن حظه لأنه لم يعد بحاجة إلى أداء رسالته. وهذه القصة تسمى (الديك الهارب) » .

لم يكن لورانس أول من استحدث عنوان «الرجل الذى مات» فقد سبقه إلى ذلك ادوين ارلنجتون روبنسون الذى أصدر عام ١٩٢٤ كتابا بعنوان «الرجل الذى مات مرتين» . سعى لورانس فى قصته إلى الهجوم على القديس بولس بسبب اعتقاده بانفصال الروح عن الجسد واعتقاده أيضا أن الجسد مصدر كل الشرور والفساد ، فقد جاء فى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية إصحاح ٧ آية ١٤ : « فإننا نعلم أن الناموس روحى وأما أنا فجسدى مبيع تحت الخطيئة » والذى لاشك فيه أن لورانس تأثر فى هجومه على المسيحية بوجه عام وعلى القديس بولس بوجه خاص بما نشره الفيلسوف الألمانى المعروف نيتشه بعنوان «عدو المسيح» المنشور عام ١٨٨٨ . فقد أدان نيتشه فى كتابه تحول الله إلى قوة معادية للحياة البشرية .

استمد لورانس بذرة قصته من قصة قرأها نحو عام (١٩١٦) من تأليف جابرييل دافوتتسيو بعنوان «عذراء الصخرة» (١٨٩٥) فقد كتب دافوتتسيو مدافعا عن النظرة الحسية إلى الحياة بصدد المسيح: «من الجائز لو أن اليهود لم يقتلوه فى مقتبل العمر لأزاح عن كاهله وطأة الحزن واستساغ مذاق ثمار الجليل اليانعةوبين لتابعيه أن هناك سعادة أخرى».

قرأ لورانس هجوم نيتشه على المسيحية فى مارس عام ١٩١١ ، ونحن نجد أصداء لتأثره بأفكار هذا الفيلسوف فى روايته «قوس قزح» ، وفيها نطالع أن بطلتها أورسولا : «كانت تشعر بوجود شىء غير نظيف ومنحط فى الجانب المتواضع من المسيحية ، كما أن الرعب امتلكها عندما حثها البعض على أكل جسد يسوع الميت » وفى مقال سطره لورانس عن الشاعر الأمريكى والت ويتمان فى نهاية الحرب الأولى نراه يعالج نفس الموضوع الذى عالجه فيما بعد فى قصته : «الرجل الذى مات» . يقول لورانس فى مقاله عن ويتمان : «إن المسيحيين فى مرحلة تلو الأخرى قاموا فعلا بتدمير الجانب الحسى فى الإنسان » .

ويناقش لورانس فى احدى مقالاته اللاحقة بعنوان «الله الذى قام من الأموات » العلاقة بين بعث الجسد وتجدد الطبيعة فى موسم الربيع ، قائلا فى هذا الشأن : «إن مذهب الكنيسة

يبشر ببعث الجسد وإذا لم يكن هذا معناه بعث الإنسان كاملا فإنه يصبح بلا معنى . والويل لى إذا كان يمكن للإنسان أن يصبح كاملا بدون امرأة . إنه قام من الأموات ليتحد مع الحياة ويحيى تلك الحياة العظيمة المشتملة على الروح والجسد معا .. وإذا كان يسوع المسيح قد قام فى الجسد والروح كإنسان مكتمل فإنه لم يفعل هذا إلا ليتخذ لنفسه امرأة يعيش معها ويعرف رقة وازدهار الاتحاد بها .

ان القصة التى ألفها لورانس تبدأ بيقظة حواس الرجل الذى مات وتحوله من عالم مسيحى إلى عالم وثنى تتجدد فيه الطبيعة فى فصل الربيع . ان لورانس يعيب على المسيحية إيمانها بحب العالم وإنكار الذات من أجله فى حين أن الهدف الحقيقى من الحياة ليس الايثار أو انكار الذات ولكن تحقيق هذه الذات فضلا عن أن المسيحية تحض على زراية الجسد فى حين أنه يعلى من شأن الجسد وينادى بضرورة انصهار الجسد والروح فى بوتقة واحدة . والقارىء لروايته الشهيرة «أبناء وعشاق» يرى أن بطلها بول (الذى يمثل المؤلف) يتمرد على تزمت أمه وتشددها البيوريتانى فى فهم الدين المسيحى . ومن ثم تمرده على الدين فى يفاعته ، وهو لم ينبذ الدين بسبب أمه فحسب بل بسبب حبيبته ميريام التى كانت تحبه حبا

مسيحيا افلاطونيا طاهرا ونقيا وتستبشع ما قد يظهر عليه من عواطف جنسية . إن المسيحية التى كانت تصلح فى الماضى لم تعد - فى نظر لورانس - تصلح للحاضر . يقول مؤلفنا فى هذا الشأن :

« إنني أعرف عظمة المسيحية ولكنها عظمة تنتمى إلى الماضى ، وإنى أعرف أنه لولا المسيحيون الأوائل لما كنا قد خرجنا أبدا من الفوضى وويلات العصور الوسطى التى تبعث على اليأس والقنوط ، ولو أنى كنت أعيش عام ٤٠٠ ميلادية لكنت مسيحيا حقا يتأجج بالعاطفة المسيحية ويبتهل إلى الله ، ولكنى أعيش الآن عام ١٩٢٤ بعد انتهاء شأن المسيحية ، إن المسيحية لم تعد أمرا مثيرا ويجب علينا الشروع فى مغامرة جديدة تقودنا إلى الله» .

وأخيرا لا مناص من القول إن قصة «الرجل الذى مات» واضحة التجديف فهى تتصور أنه بعد قيامته يخوض تجربة الجنس مع كاهنة ايزيس التى يتركها ويهرب من الحراس الرومان بعد أن وضع بذرته فيها ، حتى مريم المجدلية أرادت غوايته وزوجة الفلاح أرادت أن تراوده عن نفسه . كل هذه الأمور جلية واضحة رغم شدة إغراق القصة فى استخدام الرموز والصور الشعرية وأيضا رغم استخدامها لمفردات الدين المسيحى مثل صياح الديك الذى أيقظه من

رقاده والذى يعيد إلى الأذهان صياح الديك عند خيانة بطرس للسيد المسيح .

الرأى عندى أن القصة هى هلوسة رجل عبقرى أضناه المرض وأهلك السقم جسده وأدناه من الموت فأصبح مستمسكا فى يأس عظيم بتلابيب الحياة التى أوشكت على الانطفاء وعلى أية حال فإن نشر مثل هذا العمل بلغته الأصيلة لدليل قوى على مدى ديناميكية الحضارة المسيحية وسماحتها ورحابة صدرها

من الخطأ أن يعتقد القارىء أننا نهدف من وراء نشر هذه القصة إلى الزراية بالدين المسيحى ولشخصية المسيح . فليس هناك ما هو أغلى منهما لدى مترجم هذه القصة . والذى أغرانى بترجمتها والسعى إلى نشرها ما تتسم به من غرابة من ناحية ورغبتى فى إلقاء الضوء على نمط من الفكر الغربى لم نألفه فى الشرق . وأيضا يخطىء القارئ إذا ظن أننا نشارك المؤلف رأيه فى قليل أو كثير .

نحن جزء لا يتجزأ من الكوكب الذى نعيش عليه ولابد لنا من الإطلاع على تجاربه مهما بدت غرابتها . لابد لنا أن نتعرف على آراء الشعوب الأخرى مهما اختلفنا معها ومهما كانت قميئة أوكريهة على أنفسنا . فالعالم كما يقولون قد أصبح قرية صغيرة . وما يحدث فى أى ركن قصى منه أصبح

عن طريق وسائل الاتصال الحديثة وعلى رأسها الانترنت شديد الدنو منا . وتجاهل ما يحدث فى هذا العالم يضعفنا ولا يقوينا. ثم إن الأمانة تقتضى منا أن نتعرض لتجارب الآخرين بموضوعية وحيدة تامة دون أن يكون هناك ما يضطرنا إلى الأخذ بها . إن الأديان فى الشرق راسخة رسوخ الجبال العتيدة الشاهقة وسوف تظل كذلك إلى يوم الدين . ومهما قيل بشأنها فإنها لن تتأثر مطلقا ولن تتزحزح قيد أنملة.

وعلى كل حال إذا كان للقيم المادية والديمقراطية فى الغرب وجهها القمىء فإن للحرية وجهها المشرق رغم أنها قد تؤدى أحيانا إلى الشطط والتطاول على المقدسات . إن ما يتمتع به الغرب من حرية التفكير والتعبير دلالة قوة أكثر منه دلالة ضعف . فالغرب لم يعد يلتجىء إلى قمع الأفكار الهدامة أو المخالفة بل يكتفى بالرد عليها وتفنيدها وأعتقد أننا سوف نكسب أكثر مما نخسر إذا انتهجنا هذا النهج .

المترجم

الرجل الذى مات

كـان هناك فـلاح بـالقـرب من أورشليم يملك ديكا فـتـيـا يفـيض بالحيوية ، ورغم أن هذا الديك بدا زرى المنظر وضئيل الحجم فإن جسمه بتقدم الربيع غطاه الريش الزاهى ، كما أنه بدا بديعا بعنقه المقوس البرتقالى اللون حين ازدهرت الأوراق على أطراف أشجار التين

وكان هذا الفلاح فقيرا يعيش فى كوخ من الطوب المصنوع من الطمى وليس فـيـه سـوى فناء داخلى هو كل مـا يملك من أرض ويحتوى على شجرة تين قوية . وكان يعمل عملا شاقا فى الكرمة وحقـول الزيتـون والقمح التى يملكهـا سيـده . ثم يعود بعد عمله الشاق لينام فى بيته المجاور للطريق . وأيضا يحتوى فناء البيت المقفول على ثلاث دجاجات زرية المنظر تضع بيضا صغير الحجم وقد سقط ريشـهـا القليل الذى يغطى جسدها ، فضـلا عن أنهـا خلفت وراءها كـمـيـة كـبيـرة من الوسـاخـات لاتتناسب مع ضـآلة حجمها .

وكان هناك كذلك فى أحد الاركان تحت السقف المغطى بالقش حمـار غبى اصطحبـه الفلاح إلى العمل ، ولكن هذا الحمـار كان يبقى أحيانا فى البيت .وكان هذا الفلاح متزوجا من امرأة لاتزال تحتفظ بشبابها ذات حاجبين أسودين ولا تميل إلى ارهاق نفسها فى الشـغل ، ورمت الزوجة للدواجن قليلا من الحبوب أو بقايا أكلة

العصيدة ، كما كانت تقطع العلف الأخضر بالمنجل لتقدمه إلى الأتان.

وكبر الديك الشاب حتى بدا على قدر من البهاء ، وشاءت الأقدار بالمصادفة أن يصبح هذا الديك غندورا فى ذلك الفناء القذر الصغير يفعل ما يحلو له بثلاث دجاجات مبقعة تعيش معه فى نفس المكان . وتعلم هذا الديك أن يلوى رقبته ويرفعها إلى أعلى مطلقا صرخاته الحادة استجابة لصياح الديوك الأخرى التى يصل صوتها إليه من وراء الجدران ومن عالم لايعرف عنه شيئا ، غير أن صياحه كان يتسم بحدة غير عادية ، وكانت صيحات الديوك الأخرى تثير ثائرته على نحو غير متوقع .

قال الفلاح ناهضا وهو يشد رداء النهار فوق رأسه : « يا لجمال غنائه» فردت عليه زوجته : ان هذا الديك قادر على معاشرة عشرين دجاجة » .

وخرج الفلاح ليلقى بفخر نظرة على ديكه الشاب الذى بدا مزدانا بعد أن تعرف معرفة أخيرة على ثلاث دجاجات رثة المظهر، ولكن الديك أمال رأسه ليستمع إلى التحدى الذى جاءه من بعيد من الديوك غير المرئية فى العالم المجهول . ووصلت إليه أصوات هذه الديوك وهى تصيح بغموض من مكان ناء فرد عليها الديك بصوت تحد مجلجل لا يعرف الخوف أو الضعف .

قالت زوجة الفلاح : «إنه بكل تأكيد سيطير هاربا منا فى يوم من الأيام» ولهذا حرص الفلاح وزوجته على إغرائه بالقمح وأمسكا به رغم أنه قاومهما بقوة برجليه واصطفاق أجنحته ووضعا قطعة من الدوبار حول عظمة ساقه وربطاه من طرف إلى صخرة وربطاه من الطرف الآخر إلى العمود الذى يحمل سقف زريبة الحمار المصنوع من القش .

ومشى الديك الشاب بعد تحرره مشية المختال فى سخط حتى ابتعد عن البشر ، وأتى إلى نهاية الدوبارة ثم هز رجله المربوطة بعنف فارتطمت وسقط الديك للحظة على الأرض وهو يتصارع فى حدة على أرضية البيت الترابية غير النظيفة الأمر الذى أفزع الدجاجات الرثة ، ولكن الديك بعد أن ترنح ترنحا واهنا استطاع أن يستعيد قدرته على المشى على رجليه ثم وقف ليفكر ، وندت عن الفلاح وزوجته ضحكات من القلب ترامت إلى أسماع الديك الشاب الذى أدرك متشائما - اعتمادا على تلك المعرفة المنذرة بالشر - أن رجله مقيدة .

لم يعد الديك يمشى مختالا مرفرفا جناحيه ونافشا ريشه ، بل مشى بجهامة بقدر ما سمحت له قيود الدوبارة ، وكان لايزال يزدرد أفضل الحبوب فى طعامه كما كان فى بعض الأحيان يدخر بعض أفضل هذه الحبات لتأكلها دجاجته التى اختارها لتكون

محظيتـه فى تلك اللحظة ، ورغم هذا فإنه سار فى زهو مفترس ترتجف أوصاله وتهتز نحو محظياته من الدجاج الواقفة فى طريقه دون مبالاة أو اكتراث ، مظهرا قدرته الخافية على إغراء الاناث ثم صاح متحديا صوب صيحات الديكة الأخرى التى انهمرت عليه فى الفجر من مكان ناء وبعيد .

والآن اتسمت طريقته فى ازدراد الطعام بشراهة متجهمة، كما أن طريقته فى معاشرة الدجاجات الرثة اتسمت بالانتصار المنتكس ، وفضلا عن ذلك فقد صوته جلجلة رنينه الذهبى الكامل . ولا غرو فهو مربوط من رجله وهو يعلم ذلك ، ثم إن الدوبارة قيدت جسده وروحه ونفسه .

ورغم ذلك استمر بجهامة فى أعماقه ينبض بالحياة الدافقة . وشعر بضرورة تمزيق الرباط الذى يقيد حركته ، وفى صبيحة أحد الأيام وقبيل انبلاج نور الفجر صحا الديك من سباته وقد غمرته موجة من القوة المفاجئة ، وقفز إلى الأمام على جناحيه فانقطعت الدوبارة ، وندت عنه نعقة وحشية غريبة . وبقفزة واحدة اعتلى أعلى الحائط ، وهناك صاح صيحة حادة عالية أيقظت الفلاح من نومه .

وفى نفس الوقت ، بل وفى نفس الساعة السابقة على انبلاج الفجر من صبيحة نفس اليوم استيقظ رجل من سبات عميق كان

قد استغرق فيه ، ولما استيقظ شعر بالخدر والبرودة يسريان فى جسده ، وهو راقد فى مغارة منحوتة فى الصخر ، وكان جسده طيلة نومه الطويل يعانى من الألـم الـذى لم يبارحه حتى بعد استيقاظه ، ورغم أنه لم يفتح عينيه ، فإنه أدرك أنه يقظان وأنه يشعر بالخدر والبرودة يسريان فيه كما شعر بأن أعضاءه متصلبة وتفيض بالألم ، فضلا عن أنه مربوط إذ كان وجهه ملفوفا فى أكفان باردة ورجلاه مربوطتين ، ولكن يديه فقط كانتا مقيدتين .

كان باستطاعته أن يتحرك لو أراد ذلك ، ولكن لم يكن راغبا فى الحركة فمن ذا الذى يريد أن يعود من عالم الأموات ؟ واستولى عليه شعور قوى بالغثيان عندما أحس أن هناك ما يشير إلى أنه أصبح قادرا على الحركة ، لقد شعر لتوه بالسخط لأنه أبدى حركة غريبة وغير محسوبة تدل على استرجاعه الوعى وهو ما كان لايرغب فى حدوثه ، فقد كان يؤثر البقاء فى ذلك الخارج الذى تصير فيه الذاكرة نفسها مثل قطعة الحجر الميتة .

لكنه أحس الآن بشئ يعود إليه ، مثل رجوع خطاب إلى راسله، وأثناء عودة هذا الشئ أحس بالغثيان يستولى عليه، ومع ذلك تحركت يداه فجأة ، وارتفعت يداه باردتين وثقيلتين وتنتشر فيهما القروح . ولكنهما رغم ذلك تحركتا لتزيحا القماش الذى يغطى

وجهه والأربطة المحيطة بكتفيه ، وبعدئذ تهاوت يداه للمرة الثانية باردتين خدرتين وهما تؤلمانه لأنه بذل مثل هذا الجهد فى تحريكهما، وأصبحت يداه على غير استعداد للحركة بالمرة .

وبعد أن أزاح الرجل غطاء وجهه وحرر كتفيه من القيود ، أصابته انتكاسة فرقد ميتا مستندا إلى فناء الموت البارد ، وهو أقصى مايمكن للمرء أن يرغب فيه ، وكاد يبلغ تماما حالة الفناء الناجم عن الوجود خارج هذا العالم .

ورغم أنه كاد يفقد وعيه ، فإنه شعر فجأة بالألم فى معصميه فارتفعت يداه ، وبدأتا فى إزاحة اللفائف المحيطة بركبتيه، كما شرعت قدماه فى الحركة ، ولكن صدره ظل راقدا تسرى فيه برودة الموت .

وأخيرا فتح عينيه على الظلمة . نفس الظلمة ! ولكن ربما كان هناك بصيص خافت من ذلك الضوء الذى يخترق الظلمة الدامسة باعثا على الازعاج الشديد ، ولم يستطع أن يرفع رأسه وأغمض عينيه مرة أخرى شاعرا أن أمره قد انتهى .

وفجأة اعتدل فى رقدته ، فرأى العالم يترنح من حوله ، وتساقطت الضمادات وبدأ يحس بجدران المغارة تضيق عليه ، مما أعطاه احساسا جديدا مؤلما بأنه مسجون فى زنزانة ، وكانت

هناك شقوق تسمح بمرور بصيص من الضوء فيها ، وأمده الإحساس باقشعرار بدنه بقوة دافعة جديدة مكنته من أن يميل بجسده إلي الامام فى جوف المغارة الضيق ، وأسند يديه الواهنتين على الصخرة بالقرب من الشقوق التى نفذ الضوء من خلالها .

وجاءته القوة من مكان ما ... من اقشعرار بدنه نفورا واشمئزازا . وحدث صوت ارتطام واخترقت المكان موجة من الضياء. وطأطأ رأسه وجرمز فى حجرة يواجه اندفاع الضوء الوحشى ، لم يكن الفجر بعد قد انبلج ، وداعبته غرابة وحدة أنفاس الفجر النافذ مما يدل على يقظته الكاملة من سباته .

وشيئا فشيئا زحف الرجل من زنزانة المغارة بحرص من كان مصابا بجراح ثخينة ، وسقطت عنه الضمادات والكتان والعطور ، وجرمز على الأرض مستندا إلى حائط المغارة الصخرى ليستعيد نسيانه لما حوله ، ولكنه رأى قدميه اللتين تؤلمانه تلمسان الأرض مرة أخرى فى ألم ممض لايطاق ، تلك الأرض التى لم تكونا لتلمساها قط ، ورأى ساقيه النحيلتين اللتين ماتتا ، وملأه ألم لاسبيل لاستكناه حقيقته .. ألم يشبه الجسد عندما ينفض عن

نفسه الأوهام ويفيق إلى الحقيقة إلى الحد الذى جعله يقف على قدميه ويضع يده الممزقة على حافة القبر .

يالها من عودة إلى الحياة من عالم الأموات ! ورأى لفائف الكتان تسقط من حول قدميه الميتتين فانحنى ليلتقطها ويطبقها ويضعها فى التجويف الصخرى الذى خرج منه ، وبعدئذ أخذ ملاءة الكتان المعطرة ولفها حول جسده كعباءة يتأزر بها ، ثم التفت إلى الفجر الخافت البارد .

كان وحيدا وأصبح بموته يتجاوز حتى الوحدة .

وكان لايزال ممتلئا بالشعور بالغثيان الذى يسببه نفضه الذى لايوصف للأوهام ، وخطا الرجل بأقدام انكمشت فجأة من شدة الألم على المنحدر الصخرى ، ومر على جنود الحراسة النائمين والراقدين تحت نبات الغار الوحشى فى عباءاتهم المصنوعة من الصوف ، وبينما هو صامت وواقف على قدمين مثخنتين بالجراح يلفه كفن من الكتان الأبيض ألقى للحظة نظرة على أجساد الجنود التى تشبه الكومة الخامدة ، وأثار منظرهم فى نفسه المقت الشديد ولكن بالرغم من أنهم بدوا كمجموعة من الأطراف البطيئة القذرة فإنه شعر بنوع من العطف عليهم ، وتقدم فى اتجاه الطريق خشية أن يوقظهم من نومهم .

لم يكن لديه أى مكان يذهب إليه ، فانصرف من المدينة الواقعة على التلال وتبع ببطء الطريق مبتعدا عن المدينة ومر أثناء سيره بشجر الزيتون التى كانت زهور الأنوميا تنحنى أسفله فى برودة الفجر . فى حين تكاثرت الحشائش الغنية بالخضرة . وبدا العالم نفس العالم .. العالم الطبيعى الزاخر بالخضرة وارتفع صوت العندليب الحلو الجذاب يشدو بنغمة مغرية حزينة مغنيا عند الشجيرات الواقعة بجوار ساقية المياه الموجودة فى هذا العالم الطبيعى حيث الصباح والمساء الذى لايموت والذى كان شاهدا على وفاته .

ومضى فى سبيله على قدمين مليئتين بالجروح والندوب ، لا هو من هذا العالم ولا هو من العالم الآخر ، لا هو هنا ولا هناك ولا هو بالمبصر أو بغير المبصر ، معنى الرجل فى عتامة إلى الأمام مبتعدا عن المدينة وضواحيها متعجبا لما يدعوه إلى السفر والتجوال ، ومع ذلك فقد تحرك فيه إحساس عميق غامض بالغثيان مثلما دفعه احساس بالتصميم ، لم يكن يدرى أنه يخامره .

وتقدم فى طريقه وهو نصف واع بما يفعل تحت الحائط الصخرى الجاف المحيط ببستان الزيتون ، وأيقظه صياح الديك الحاد العنيف والقريب منه . وكان صياح الديك سببا فى شعوره

بالنفور والاشمئزاز كما لو كان مسا كهربائيا قد أصابه ، ورأى ديكا يجمع بين اللونين الأسود والبرتقالى قابعا على فرع شجرة تكسو الطريق كما رأى فلاحا يلبس جلبابا واسعا من الصوف يجرى وسط شجر الزيتون الموجود فى اعلى البستان، وجاء الديك ذو اللونين الأسود والبرتقالى يعلوه عرفه الأحمر وهو يقفز فى وسط الخضرة ، وقد انساب ريشه الطويل وضاء زاهيا .

صاح الفلاح قائلا : «أوقفه يا سيد ، أوقف ديكى الذى هرب منى» وفتح الرجل الموجهة اليه هذه الكلمات - وقد ارتسمت على وجهه خلجة مفاجئة من الابتسام - طرفى كفنه الأبيض الواسع ليعوق حركة الطائر الهارب ، وتراجع الديك وندت عنه نعقة ورفرفة ، وقفز الفلاح إلى الأمام للإمساك به فحدثت رفرفة فظيعة فى جناحى الطائر الخفيضين ونفض ريشه .

وتمكن الفلاح من استعادة الديك والامساك به فى أمان تحت إبطه فرفع رقبته بجنون إلى الامام وقد جحظت عيناه المستديرتان من حدقتيه البيضاوين .

قال الفلاح «إنه ديكى الهارب» مربتا بيده اليسرى على الطائر لتهدئته ، وتفرس وحبات العرق تنضح منه فى وجه الرجل الملفوف بالكتان الأبيض .

وتغيرت ملامح الفلاح فوقف جامدا بلا حراك وهو يتطلع إلى وجه الرجل الذى مات وقد كسته صفرة الموت ، ذلك الوجه الساكن للغاية الممتقع امتقاع الموت بلحيته السوداء النامية كما لو كانت تنمو رغم الموت . وتلك العيون السوداء الحزينة المفتوحة باتساع التى ماتت ، وتلك الندوب المغسولة على جبينه الممتقع . وفغر الفلاح الذى تجرى الدماء فى عروقه بطيئة فاهه بسبب عدم قدرته على استيعاب الموقف كما لو كان طفلا .

قال الرجل المتدثر بالكفن : « لاتخف فأنا لست ميتا ، لقد تعجلوا فى إنزالى ودفنى . ولهذا عدت من الأموات ، ومع ذلك فإنهم سيفعلون بى نفس ما فعلوا لو أنهم اكتشفوا أننى لا أزال حيا » .

تحدث الرجل بصوت اشمئزازه القديم من الجنس البشرى ، وبالذات عندما يكون الجنس البشرى فى السلطة ! شئ واحد فقط يستطيع الجنس البشرى أن يفعله ! ونظر بعيون سوداء غير مكترثة إلى عينىّ الفلاح المتحركتين السريعتين ، وارتجفت أوصال الفلاح ، وأصبح لا حول له ولا قوة أمام نظرات الرجل المفعمة باللا مبالاة المختلفة وبالتصميم البارد الغريب ، ولم يكن باستطاعة الفلاح أن يقول شيئا غير قوله للشئ الوحيد الذى يخشى أن يتفوه به :

« هل ستختبئ فى بيتى يا سيد ؟» .

«سوف أرتاح هناك ، ولكنك إذا أخبرت أى إنسان ، فأنت تعرف ما سيحدث ، سوف يقودونك إلى القاضى» .

وتلفت الفلاح من حوله فى خوف متعجبا بوجوم عما حدا به أن يجلب هذه المصيبة على نفسه ، وفى ألم صعد الرجل الذى تغطى الندوب قدميه حتى وصل إلى مكان بستان الزيتون ، وتبع الفلاح المسرع الواجم عبر أعواد القمح الخضراء الموجودة وسط أشجار الزيتون ، وشعر بملمس القمح النضير تحت قدميه اللتين ماتتا ، وكأنه قطعة من الحرير ، وأحس بخشونة حبات القمح المنفصلة ..

وعند حافة الصخور وقع بصره على براعم زهور الانيمونيا القرمزية ذات الملمس الحريرى والشعر الفضى وهى تنحنى إلى أسفل ، وأيضا كانت هذه الزهور تنتمى إلى عالم آخر. أما هو فقد كان فى عالمه وحيدا وحدة مطلقة . وكانت هذه الأشياء المحيطة به تنتمى إلى عالم لم يمت أبدا ، ولكن هو نفسه قد مات أو قتلوه حتى يخرج من هذا العالم ، وكل ما تبقى لديه الآن هو ذلك الشعور العظيم الأجوف بالغثيان الناجم عن نفض الأوهام الكامل والافاقة إلى الحقيقة .

وجاء الرجلان إلى كوخ من الطين وبقلب حزين وكسير انتظر الفلاح حتى يمر الرجل الآخر .

قال الفلاح :

ادخل ... ادخل فلم يرنا أحد ..!

ودخل الرجل المكتسى بالكتان الأبيض حجرة مبنية من الطين حاملا معه أريج العطور الغريبة ، وأغلق الفلاح الباب ودلف عبر مدخل داخلى إلى الفناء حيث وقفت أتان داخل الحوائط العالية فى مأمن من السرقة وهناك قام الفلاح - وهو أشد ما يكون انزعاجا - بربط الديك . وجلس الرجل الممتقع الوجه على حصيرة بالقرب من المدفأة ، فقد كان منهوك القوى وبالكاد يحس بأنه واع لما يحيط به ، ورغم ذلك فقد سمع فى الخارج الفلاح وهو يهمس فى أذن زوجته التى كانت فوق السقف تراقب ما يحدث ، وفى الحال دخل الرجلان ، وأخفت المرأة وجهها وصبت الماء ووضعت الخبز والتين المجفف على طبق مصنوع من الخشب .

قال الفلاح :

«لتأكل يا سيد ! لتأكل ! إن أحدا لم يرنا»

ولكن الغريب لم تكن لديه الرغبة فى الطعام ، ومع ذلك فإنه بلل قطعة صغيرة من الخبز فى الماء وأكلها لأن الحياة يجب أن

تستمر، ولكن الرغبة ماتت فيه ، حتى الرغبة فى الطعام والشراب ، لقد عاد من الأموات دون أية رغبة ، بل حتى دون الرغبة فى أن يعيش ، وكان قلبه فارغا إلا من الشعور بنفض الأوهام الكاسح الراقد فيه مثل الغثيان الذى عاشه فيما مضى .

ربما استقر فى أعماقه أكثر من نفض الأحلام ذلك التصميم الزاهد فى الرغبة الذى غار فى أعماقه أكثر من الوعى ذاته .

ووقف الفلاح وزوجته بجوار الباب يراقبان فرأيا ، والرعب يملأ جوانحهما ، الجروح البيضاء المتقيحة على يديه النحيلتين الذابلتين وكذلك على قدمي الرجل الغريب الناحلتين والندوب الصغيرة فى جبينه الذى لايزال ميتا وشما بفزع رائحة العطور الغنية التى فاحت منه ومن جسده . ونظرا إلى الكتان الناصع البياض البديع الثمين ، ربما كان فى حقيقة الأمر ملكا وافته منيته جاء من منطقة الرعب والفزع ، وكان لايزال باردا ونائيا فى منطقة الموت يفوح أريج العطور فى جسده الشفاف كما لو كان يفوح من زهرة غريبة.

..

وبعد أن ازدرد بصعوبة شيئا من الخبز المبلل ، رفع عينيه فى اتجاه الرجل وزوجته ورآهما كما كانا : محدودين وضئيلين فى حياتهما وعاريين عن روعة الحركة المعبرة عما يخالجهما وأيضا عاريين عن الشجاعة ، ولكنهما كانا كما كانا مجرد أجزاء بطيئة لا

محيص عنها من العالم الطبيعى ، لم تكن فيهما نبالة ، ولكن الخوف بعث فيهما القدرة على التعاطف مع الآخرين .

ومرة أخرى شعر الغريب بالتعاطف معهما لأنه عرف أنهما سيستجيبان ويخرجان أفضل ما فيهما أمام الرقة والحنو اللذين سوف يبادلهما اياهما برقة وحنو يختفيان تحت ستار من الخشونة .

قال لهما برقة : «لاتخافا . دعانى أمكث معكما وقتا قليلا . إننى لن أمكث طويلا ، وبعدئذ سأرحل عنكما إلى الأبد . ولكن لا تخافا فلن ينالكما ضرر بسببى .

وصدقاه على الفور غير أن الخوف لم يبرح قلبيهما وقالا :

«أمكث يا سيد المدة التى تريدها .ولتأخذ راحتك . ولتأخذ راحتك بسكينة وهدوء» .

ولكن الخوف ملأ قلبيهما .

وتركهما الرجل الذى مات لخوفهما ، وانصرف الفلاح بصحبة أتانه ، وبزغت الشمس ساطعة ، وفى ظلمة البيت والباب مغلق بدا الرجل كما لو كان لايزال فى القبر ، ولهذا قال للمرأة «سوف أرقد فى الفناء» .

وهبت المرأة لتكنس الفناء من أجله . ووضعت له حصيرة فرقد أسفل الجدار وقد سقطت عليه شمس الصباح ، وهناك شاهد بشائر أوراق الشجر الخضراء تنطلق من نهايات شجرة التوت المحاطة عبر المكان الأجرد العارى نحو سماء الربيع فوقه ، ولكن الرجل الذى كان قد مات كان عاجزا عن النظر ، فكل ما استطاع فعله هو أن يرقد هامدا تماما فى الشمس التى لم تكن السخونة قد دبت فيها بعد . ولم يحس بالرغبة تعتمل بين جوارحه ولاحتى الرغبة فى أن يبدى حراكا ، ولكنه رقد وقد امتدت رجلاه النحيلتان فى الشمس وانسدل شعره الأسود المعطر على تجويف رقبته ، وكانت ذراعاه الناحلتان الخاليتان من اللون فى حالة من الخمول الكامل ، وبينما هو راقد كانت الفراخ تقوقو وتنبش الأرض . أما الديك الهارب الذى تم الامساك به وربطه من رجله مرة أخرى فقد قبع فى ركن وقد اعتراه الخوف والفرق .

وانتاب الخوف المرأة الفلاحة التى جاءت متلصصة . ولما رأت أنه لا يتحرك أبدا ، خافت أن يكون الرجل قد مات فى فناء بيتها ، ولكن عندما اشتدت الشمس فتح الرجل عينيه ونظر إليها فانتابها الخوف من هذا الرجل الحى الذى لم ينبس ببنت شفة .

فتح عينيه ورأى العالم مرة أخرى فى لمعانه الشبيه بلمعان الزجاج ، وأحس بالحياة التى لم يعد له فيها أى نصيب ، ولمعت من حوله الأشياء: السماء الزرقاء وشجرة التين الجرداء تكسوها نتف من الأوراق الخضراء . كان كل شئ يلمع كالزجاج دون أن يشارك فيه لأن الرغبة التى تعتمل فيه قد ماتت .

ومع ذلك كان الرجل هناك لم تنطفىء فيه جذوة الحياة تماما ، وأمضى يومه فى نوع من الغيبوبة ، وعند هبوط المساء دخل المنزل، كان الفلاح قد رجع إلى بيته يعتريه الخوف ، وظل صامتا لاينبس بكلمة واحدة ، وأيضا أكل الرجل الغريب من عليق الفول ، ولكن قليلا . وبعدئذ غسل يديه والتفت إلى الحائط وظل صامتا ، وكان الفلاح وامرأته صامتين كذلك ، ولاحظا أن ضيفهما نائم . كان النوم الذى استطاع أن ينامه أقرب ما يكون إلى الموت .

ورغم هذا فعندما ارتفعت الشمس إلى كبد السماء ذهب للمرة الثانية كى يرقد فى الفناء ، وكانت الشمس هى الشئ الوحيد الذى اجتذبه وأثر فيه ، وكان لايزال راغبا فى استنشاق هواء الصباح البارد فى فتحتى أنفه ، وأن يرى السماء الشاحبة فوق رأسه ، فهو يكره الشعور بأنه محبوس .

وعندما خرج الرجل صاح الديك الشاب، كانت صيحته ضئيلة ومتألمة ولكن كان فى صوته شئ أقوى مما أصابه من كمد إذ إنه شعر بضرورة الحياة وبالرغبة فى أن يزعق زعقة تنم عن انتصار الحياة ، ووقف الرجل الذى مات يراقب الديك الهارب الذى تم الإمساك به ، وهو يرفرف بجناحيه أثناء نهوضه ويرتفع إلى الامام على أطراف أصابعه ، ويرفع رأسه ويفتح منقاره فى تحد آخر من جانب الحياة ضد الموت . وجلجلت أصوات الديك الشجاعة ورغم أن هذه الأصوات خفتت بسبب الدوبارة الملفوفة حول رجله إلا أنها لم تضمحل ، ونظر الرجل الذى مات نظرة عارية إلى الحياة ورأى تصميما هائلا فى كل مكان يقذف بنفسه فى ذرى موجات عاصفة أو ناعمة وأطراف الزبد تخرج غير مرئية من الزرقة ، وديكا يجمع بين السواد والصفرة أو ألسنة اللهب الخضراء وهى تخرج من أقاصى شجرة التين ، وجاءت أشياء الربيع ومخلوقاته تتوهج بالرغبة والتأكيد ، جاءت مثل قمم الزبد من ذلك الفيض الأزرق النابع من الرغبة غير المنظورة ومن بحر القوة الهائل وغير المرئى . جاءت محسوسة وتزدان بالألوان مضمحلة واهنة ولكن لا يصيبها الموت ، ونظر الرجل الذى مات إلى الغورة العظيمة التى يتسم بها وجود الأشياء التى لم تمت ،

ولكنه لم يعـد يـرى رغبتهـا المرتجـفة من الوجـود والكينونة ، وسـمع بدلا منهـا ذلك التـحـدى المجلجل لكل المـوجـودات الأخرى .

رقد الرجل دون أن يحرك ساكنا وفتح عينيه اللتين عرفتا الموت واسعتين وفى عتمة لم تتبدد ورأى تصميم الحياة الخالد. وبادله الديك نظرته بنظرة مستوية ذات بريق .. بنظرة الطير الذى لا يرى الأشياء بجلاء . ولم ير الرجل الذى مات الطائر وحده ولكنه رأى معه موجة الحياة القصيرة الحادة التى كان الديك يعتلى قمتها . وراقب حركة منقار هذا المخلوق الغريب وهو يلتهم بداخله بقايا الطعام وينظر إلى عين الحياة وهو فى حالة دائمة من التنبه والتأهب والمراقبة والتيه بالنفس والحرص والحذر ، وصوت حياته يرتفع بالنصر والتأكيد ولكنه يشعر فى نفس الوقت بالاختناق بسبب الظروف التى شاءت أن تقيد حركته بدوبارة . وبدا أن الرجل يستمع إلى اللغة الغريبة التى تتميز بها الحياة نفسها فيما كان الديك يقلد فى انتصار نقنقة دجاجته الأثيرة إليه وهى تضع بيضة . وهى نقنقة ما زالت تثير فى الديك الغصة الجوفاء الناجمة عن التفاف الدوبارة حول رجله ، وعندما ألقى الرجل شيئا من الخبز للديك صاح الديك برقة غير عادية تحمل فى طياتها الغواية والاغراء وهو ينبش الأرض مدخرا قطعة الخبز من أجل

الدجاجات التى أسرعت نحوها بنهم حاملة إياها بعيدا بحيث لا تصل إليها الدويارة .

وبعد ذلك ، مشى الديك فى حالة من الرضا عن النفس خلف الدجاجات ، وفجأة تشنكلت قدماه عندما وصل إلى نهاية مربطه مما أدى إلى استسلامه فى حالة من الإنهيار . ثم ما لبث عرف الديك أن تقلص وانكمش وهو يرقد متكوما فى الظل . كان الديك لا يزال فى حداثته ورغم لمعان الريش فى ذيله فإن ريشه لم يكن قد كبر ونما تماما . ولم ينته به فيض الحياة ومدها وجزرها إلى النسيان إلا عند حلول المساء . وعندما اقتربت ببطء دجاجته المفضلة - وهى تتسكع دون مبالاة وتفرز اغراءها - إذا بالديك يعتليها وكل ريشة من ريشه تهتز ، وراقب الرجل الذى مات الطائر المنحنى على ظهر الدجاجة وهو يهتز اهتزازا عنيفا وغير منتظم فلم ير الديك بل رأى موجة عاتية من الحياة تلاطم فى لحظة موجة أخرى فى خضم ذلك المد الذى يمور به محيط الحياة . وبدا له أن مصير الحياة أكثر ضراوة وقدرة على الارغام من مصير الموت . وبدا مصير الموت كالظل بالمقارنة بمصير الحياة الصاخب وفورتها المحتدمة .

وفى الغسق عاد الفلاح إلى بيته مصطحبا أتانه وقال :

«يقال إن الجسد سرق من البستان وأن القبر أصبح فارغا .

وقد تم سحب الجنود الرومان الملاعين . وأخذت النسوة ينتحبن هناك» .

وتطلع الرجل الذى مات إلى الرجل الذى لم يمت . وتكلم قائلا :

«حسنا التزم الصمت وسوف تكون فى مأمن »

وأحس الفلاح بالارتياح . وبدا منظره قذرا وغبيا بعض الشئ ، كما بدا أنه لن يعرف أبدا وهج اللهب المتقد الذى سرى فى دماء الديك الشاب المربوط من رجله . كانت جذوة النار قد انطفأت فيه ولكن الرجل الذى مات قال لنفسه .

...«ما الداعى إذن إلى الارتفاع به . إن كتلا من طين الأرض تقلب من أجل الترويح والتجديد دون حاجة إلى الارتفاع بها ، فلتظل الأرض أرضا – ولتقاوم السماء . لقد سعيت إلى الارتقاء بالأرض ولكنى كنت مخطئا عندما حاولت التدخل . إن نصيب المحراث من الدمار سوف يوضع فى أرض اليهودية ، وسوف تقلب حياة هذا الفلاح مثل كتل الطين فى الحقل التى تنمو عليها الأعشاب وتبقى جذورها تحتها . ليس فى مقدور أى إنسان انقاذ الأرض من الحرث . المهم هو الحرث وليس الخلاص ... »

ونظر إلى الفلاح بتعاطف ولكن الرجل الذى مات لم يعد راغبا فى التدخل فى روح الرجل الذى لم يمت والذى لن يكون فى

استطاعته أبدا أن يموت إلا ليعود إلى التراب . دعه يعود إلى التراب عندما تحين ساعته . ولا تدع أحدا يحاول التدخل عندما يستعيده التراب إليه .

وهكذا سمح الرجل ذو الندوب والجراح للفلاح أن يمضى إلى حال سبيله . ولم يكن الفلاح ليولد من جديد . ومع ذلك قال الرجل الذى مات لنفسه : «هو مضيفى» .

وفى الفجر حين تحسنت حالة الرجل الذى مات ، نهض وسار إلى البستان بأقدام بطيئة مليئة بالقروح . لقد تمت خيانته فى البستان كما تم دفنه فى البستان . وعندما تلفت حول ساتر من نبات الغار بالقرب من وجه الصخرة ، رأى امرأة تحوم حول القبر ترتدى ثيابا زرقاء وصفراء . وألقت المرأة مرة أخرى نظرة متلصصة داخل فتحة القبر الشبيه بدولاب عميق الأغوار . ولكن القبر كان لا يزال فارغا . وعصرت يديها وأجهشت بالبكاء . وعندما ابتعد نظرها عن القبر رأت الرجل ذا الثياب البيضاء واقفا بجوار نبات الغار . وندت عنها صرخة ظنا منها أنه جاسوس جاء ليتلصص عليها . قالت :

«لقد أخذوه» .

فقال لها :

«يا مريم المجدلية !»

فمادت الأرض تحت قدميها لدرجة أنها كادت تسقط على الأرض لأنها عرفته . قال لها :

«يا مريم المجدلية ! لا تخافي . إنني حي . لقد أنزلوني بأسرع مما ينبغي ولهذا عدت إلى الحياة . وبعد ذلك احتميت في بيت» .

وارتج عليها فلم تعرف ما عساها أن تقول ولكنها جثث عند قدميه لتقبيلهما ، فقال لها :

«لا تلمسيني يا مريم . ليس الآن . إنني لم أشف من جراحي ولست بعد على صلة بالبشر» .

وانخرطت في البكاء لأنها لم تكن تعرف ما عساها أن تفعل . وقال لها :

«دعينا ننتحي جانبا بين الشجيرات حيث يمكننا أن نتحدث على انفراد دون أن يرانا أحد » .

وتبعته المرأة وهي ترتدي وشاحها الأزرق وثوبها الأصفر بين الأشجار وجلس أسفل شجرة ريحان وقال :

«إنني لم أعد تماما إلى وعيي بعد . ماذا نفعل بعد ذلك يا مريم ؟» .

قالت : «يا سيد ! لقد بكينا من أجلك ! وسوف تعود إلينا» .

قال : «الذى راح راح . ونهايتى قد مضت . إن جدول الماء سيظل يجرى حتى تتوقف الأمطار عن ملئه . عندئذ سوف يصيبه الجفاف . إن تلك الحياة أصبحت منتهية» .

قالت له فى حزن : «وتتخلى عن انتصارك ؟» .

قال : «انتصارى يكمن فى أنى لست ميتا ، لقد عشت بعد رسالتى التى لم أعد أعرف عنها شيئا . هذا هو انتصارى . لقد ظللت على قيد الحياة بعد اليوم الذى تدخلت فيه فى حياة الآخرين وبعد انقضاء هذا التدخل ، إنى لا أزال رجلا . لا أزال شابا يا مريم ولم أبلغ بعد منتصف العمر . ويسرنى أن كل هذا قد انتهى . لقد كان هذا الأمر مكتوبا على جبينى . لكنى الآن سعيد بانتهائه وبانتهاء يوم تدخلى . إن المعلم والمخلص فىّ قد ماتا ويمكننى الآن أن أفعل ما شئت وأن أعيش حياتى الخاصة المفردة » .

ترامت كلماته إلى سمعها ولكنها لم تفهمها تماما . ولكن كلماته جعلتها تشعر بخيبة الأمل .

وألحت فى قولها : «ولكنك سوف تعود إلينا ».

قال : «لست أعرف ما سوف أفعل . وسوف أعرف على نحو أفضل عندما يتم شفائى . ولكن رسالتى قد انتهت ، وكذلك تعاليمى . وأنقذنى الموت من تحقيق خلاصى . آه يا مريم أريد أن

اتبع طريقتي الخاصة فى الحياة فهى قدرى ونصيبى . إن حياتى العـامـة انتـهت .. تلك الحـيـاة التى كنت آشـعـر فـيـها بأهـيـمـتى الشـخصية ، والآن أستطيع أن أخدم الحياة وألتزم الصمت ، فلا يخـوننى أو يغـدر بى أحـد ، أردت أن أتجـاوز الحـدود التى يمكن لرجلي وقدمي الوصول إليها . ولهذا جلبت الخيانة على نفسى ، وإني أعرف أني ظلمت يهوذا .. يهوذا المسكين ، لأني مت وأعرف الآن حـدودى . أسـتطيع الآن آن أعـيش دون أن أحـاول جـاهدا التـأثير في الآخرين كمـا كنت آفعل ، فـمـتناول يدى ينتـهى عند أطراف أصـابعى وخطاى لم تعـد تتجـاوز أخـمص قـدمـى . ورغم هذا فـإنى على اسـتـعـداد لمعـانقة جـمـهـرة الناس ... أنا الذى لم أعانق أبدا أى إنسـان عناقا حـقيقيا . ولكن يهوذا وكبار الكهنة أنقذونى من خلاصـى الشـخـصى . وسـرعان مـا أستطيع الالتفات إلى قدرى مثل مستحم فى البـحر عند الفجر نزل لتوه إلى الشاطئ بمفرده .

فسـألته : « هـل تريد أن تبقى بمفردك من الآن فصاعدا . وهل انتهت رسـالتك إلى عدم ؟ هل كانت كلها غير صـادقة ؟» .

قال : «نعم ! لم يكن عشـاقك فى الماضى عدمـا . كـانوا يمثلون الشئ الكثير بالنسبة لك . ولكنك أخذت أكثر مما أعطيت . عندئذ جئت إلى طلبا للخلاص مما وقعت فيه من افراط . وأنا أيضا من

ناحيتى مارست الافراط فى أداء رسالتى إذ إننى أعطيت أكثر مما أخذت ، وهذا أيضا أمر ينطوى على الويل والغرور . من ثم فقد أنقذنى بيلاطس وكبار الكهنة من الإفراط الشخصى فى أمر خلاصى ، يا مريم المجدلية لا تفرطى الآن فى العيش فهذا ينطوى على موت آخر فقط لا غير» .

وفكرت بمرارة لأنها كانت بطبعها تحتاج إلى العطاء بإفراط ولم تقدر أن تتحمل أن ينكر أحد عليه ذلك .

سألته : «ولن ترجع إلينا . هل عدت من الأموات من أجل نفسك فقط» .

سمع نبرة السخرية والتهكم فى صوتها . وتطلع إلى وجهها الجميل الذى لا يزال مفعما بحاجتها المفرطة إلى الرغبة فى الخلاص مما كانت عليه تلك المرأة التى تصطاد الرجال حسبما تشاء . وغطتها سحابة الضرورة فى أن يتم إنقاذها مما كانت عليه من حواء القديمة والعنيدة التى احتضنت رجالا كثيرين وأخذت أكثر مما أعطت . أما الان فقد اعتراها قدرها الآخر ، فأرادت أن تعطى دون أن تأخذ ، وذلك أيضا كان قاسيا وصعبا على جسد المرأة النابض بالدفء .

قال : «لم أقم من الأموات حتى أسعى إلى الموت مرة أخرى» .

وتطلعت إليه ورأت الإنهاك مرة أخرى على وجهه المتقع ، وخيبة الأمل الهائلة فى الاحلام تطل من عينيه السوداوين واللامبالاة المختفية . وشعر بها وهى تنظر إليه فتحدث إلى نفسه قائلا : «إن اتباعى الآن يريدون موتى مرة ثانية ، لأنى قمت من الأموات على نحو يختلف عما يتوقعونه منى » .

قالت له مريم المجدلية : «ولكنك سوف تأتى إلينا لترانا نحن الذين أحببناك » .

ضحك قليلا ثم قال : «نعم» وبعد ذلك أضاف « هل لديك قليلا من النقود ؟ هل أعطيتنى قليلا من النقود . سوف أردها إليك» .

كانت النقود فى حوزتها قليلة ، لكن سرها أن تعطيها له. قال لها : «هل تفكرين فى أننى قد آتى إليك وأعيش معك فى بيتك ؟» .

تطلعت إليه بعينين زرقاوين كبيرتين تلمعان ببريق غريب .

سألته بنبرة فوز خاص : «الآن ؟» .

فرد الرجل المنكمش فى نفوره من أى فوز من أى نوع سواء كان هذا الفوز خاصا به أو بأى شخص آخر :

«ليس الآن ! ولكن فيما بعد عندما تلتئم جروحى .. وعندما تربطنى بالجسد صلة » .

تساقطت منه الكلمات متعثرة . وعرف فى قرارة قلبه أنه لن يذهب أبدا ليعيش فى دارها لأنه رأى وميض النصر يلمع فى عينيها ، كما رأى ذلك الشره نحو العطاء . ولكنها تمتمت فى نشوة وهمهمت قائلة : «آه ! إنك تعرف استعدادى لهجران كل شئ من أجلك» .

فأجابها بقوله : «نعم . ولكنى لم أطلب منك ذلك» .

وانتابه لمرة أخرى شعور بالنفور والاشمئزاز من كل الحياة التى عرفها . وعاوده الغثيان العظيم الذى أصابه عقب خيبة أمله فى أحلامه ، كما شعر بسن حربة يمزق أحشاءه . وجرمز هذا الرجل تحت شجيرات الريحان منهوك القوى . ورغم ذلك كانت عيناه مفتوحتين . ونظرت إليه مريم المجدلية مرة أخرى ، ورأت أنه لم يكن المسيح . المسيح لم يقم من الأموات . لقد تبدد حماسه ونقاؤه الحارق وشبابه المستغرق فى الفكر . فشبابه أصابه الموات . أما هذا الرجل فهو فى منتصف العمر وقد نفض عن نفسه كل الأوهام واتسم بعدم اكتراث مروع وتصميم يعجز الحب نفسه عن الانتصار عليه . هذا الرجل ليس بالسيد الذى عبدته كل هذه العبادة وليس ذاك الشاب الملتهب المنصرف عن الجسد الذى يغلى من شأن الروح فقد صار أقرب ما يكون إلى

العشاق الذين عرفتهم فى الماضى ولكنه يختلف عنهم بقدر أكبر من عدم الاكتراث بالأمور الشخصية وقدر أقل من الحساسية .

رأت المرأة هذا التغير ففقدت اتزانها واهتز حبها المنتشى والمتألم الذى بلغ حد العبادة والتقديس . هذا الرجل الذى قام من الأموات سدد ضربة قاضية ومميتة إلى الأحلام التى كانت تراودها .

قال لها : «ينبغى أن تنصرفى الآن . ولا تلمسينى فأنا فى الموت . سوف أعود هنا مرة ثانية فى اليوم الثالث . تعالى إذا شئت عند الفجر وسوف نتبادل الحديث» .

انصرفت المرأة وهى فى حالة من الانزعاج والتهدم . ولكن عقلها نبذ مرارة الحقيقة عند انصرافها . واستحضرت فى مخيلتها حالة النشوة والتعجب لأن السيد قام من الأموات ولم يعد ميتا . لقد قام من الأموات المخلص وصانع العجائب الذى يسمو بالأشياء إلى أرفع مرتبة ! وهو لم يقم من الأموات كرجل ولكن كرب طاهر ينبغى عليه ألا يلمس جسد بشر والذى سوف يرتفع إلى الفردوس وهو فى حالة من الاستغراق . إن قيامته أعظم العجائب وأقربها إلى عالم الأشباح .

وفى نفس الوقت استجمع الرجل الذى مات قواه أخيرا . ثم شق طريقه بالتدريج إلى بيت الفلاح والفلاحة وكان سعيدا برجوعه إليهما وابتعاده عن مريم المجدلية وعن رفاقه ، لأن الفلاحين عرفا خمول الدنيا وسوف يسمحان له بالراحة وسوف يمتنعان حتى ذلك الوقت عن ممارسة الضغط عليه .

كانت المرأة فوق سطح الدار تبحث عنه ، وكانت تخشى انصرافه فقد أصبح وجوده فى الدار فى نظرها مثل الخمر الرقيقة الحانية . وأسرعت نحو الباب لتلقاه .

سألته : «أين كنت ؟ ولماذا انصرفت ؟» .

«كنت أتمشى فى البستان حيث رأيت صديقا لى أعطانى قليلا من المال هذا المال من أجلك فخذيه .

ومد يده الناحلة التى تحمل المال الزهيد . هو كل ما استطاعت مريم المجدلية أن تعطيه إياه . ولمعت عينا زوجة الفلاح عند رؤية النقود إذ كانت النقود لديها شيئا نادرا . ثم قالت : «آه يا سيدى، هل حقا هذه النقود ملك لى ؟» .

أجاب : «خذيها واشترى بها خبزا لأن الخبز يعطى الحياة» .

بعدئذ رقد فى الفناء مرة أخرى وقد أشعره بالغثيان إحساسه بالارتياح لأنه أصبح وحيدا مرة أخرى . كان بإمكانه أن ينفرد بنفسه فى حضرة الفلاح وزوجته . ولكن أصدقاءه لن يسمحوا له قط بالانفراد بنفسه . وفى شعوره بالأمان أصبح الديك الشاب عزيزا عليه وهو يصيح فى حماسة الحياة العاجزة . فقد انتهى به الأمر إلى الخضوع للاذلال الناجم عن ربط رجله وتقييد حركتها . وفى ذلك اليوم نهضت الأتان تهز ذيلها تحت الحظيرة . ومدد الرجل الذى مات جسده على الأرض منصرفا تماما عن الحياة بسبب شعوره بغثيان الموت فى الحياة .

وأحضرت له المرأة خمرا وماء وكعكا حلو المذاق . وقامت بإيقاظه فأكل قليلا إرضاء لها . كان اليوم حارا . وجرمزت المرأة كى تتمكن من خدمته فوقعت أنظاره على نهديها وهما يتحركان بعيدا عن جسدها المتواضع الذى يكسوه ثوبها الواسع الفضفاض. وعرف أنها تمنت لو أنه كان راغبا فيها ، فهى لم تتجاوز مرحلة الشباب ولا تخلو من الحلاوة . ورغم أنه لم يعرف امرأة طيلة حياته فقد كان على استعداد لأن يرغب فيها لو أنه استطاع ذلك . ولكن لم يكن فى مقدوره أن يرومها رغم شعوره الرقيق نحو جسدها المتواضع الناعم الملمس وهى فى جلستها المجرمزة . كانت أفكارها ووعيها الشئ الوحيد الذى لم يستطع

مخالطته والامتزاج به . كانت مسرورة وراضية بالنقود ، وأرادت أن تأخذ منه شيئا يفوق النقود . أرادت أن يحتضنها بجسده.. ولكن روحها الصغيرة كانت صعبة وقصيرة النظر وتجنح إلى التملك والاستحواذ كما كان جسدها يعتمل بقليل من الشراهة والنهم ولا يختلج بالاجلال الرقيق نحو الهدية المرتدة إلى صاحبها. ولهذا كلمها كلمة هادئة ولطيفة ثم انصرف عنها فلم يكن فى استطاعته أن يلمس الجسد الشخصى الصغير والحياة الشخصية الكائنة فى هذه المرأة أو فى غيرها من النساء فابتعد عنها دون أن يلوى عن شئ .

وبعد قيامته من الأموات أدرك أخيرا أن الجسد أيضا لديه حياة صغيرة وأن الحياة الأعظم تقبع وراءها . كان بكرا يحجم عن حياة الجسد الصغيرة الشرهة . ولكنه الآن عرف أن البكورة ليست إلا شكلا من أشكال الشره والنهم وأن الجسد يقوم من الأموات كى يعطى ويأخذ ويأخذ ويعطى دون نهم أو شره . الآن عرف أنه قام من الأموات من أجل المرأة أو النساء اللاتى يعرفن حياة الجسد الأعظم دون نهم فى العطاء أو نهم فى الأخذ فهو يستطيع معهن الامتزاج بأجسادهن ، ولكن كان عليه بعد أن مات أن يتحلى بالصبر عارفا أن هناك وقتا بل أبدية من الوقت . ولم تكن تحركه أية رغبة نهمة لا فى إعطاء نفسه

للآخرين ولا في الاستحواذ على أي شئ من أجل نفسه ولاغرو فهو قد مضى .

ثم عاد الفلاح من عمله إلى داره وقال :

«يا سيد أشكرك على النقود ولكننا لا نريدها . وكل ما أملك هو ملك لك» وحزن الرجل الذى مات لأن الفلاح وقف هناك بجسده الشخصى الضئيل ، وقد امتلأت عيناه باللؤم ولمعتا ببريق الأمل فى حصوله على مكافأة أكبر من المال فى وقت لاحق . صحيح أن الفلاح استضافه مجانا معرضا بذلك نفسه لخطر عدم الحصول على أى مكافأة أو مقابل . ولكن الأمل الماثل فيه كان يتسم باللؤم . ومع ذلك فهذا ما جبل الانسان عليه . ولهذا فعندما تقدم الفلاح لمساعدته كى ينهض لأن الليل آرخى سدوله بادر الرجل الذى مات بقوله : «لا تلمسنى يا أخى فأنا لم أصعد بعد إلى أبى » .

وسطعت الشمس الحارقة بروعة أعظم وأضفت لمعانا أكثر على الديك الشاب . ولكن الفلاح أحضر دوبارة جديدة وربط بها رجل الديك ، وهكذا أصبح الطائر سجينا . ولكن لهيب الحياة فى صدره توهج إلى حد الاحتراق ، ولهذا نظر الديك شذرا وباستعلاء إلى الرجل الذى مات . فابتسم هذا الرجل له ناظرا إليه بإعزاز كبير

ومخاطبا إياه بقوله : «لا ريب إنك صعدت إلى الأب» ورد الديك الشاب عليه بصرخة أطلقها .

وفى فجر اليوم الثالث ذهب الرجل إلى البستان حيث استغرق في التأمل وهو يفكر فى حياة الجسد الأعظم التى تتجاوز الحياة الشخصية الضيقة والضئيلة . ولهذا جاء عبر الساتر الكثيف المكون من الغار وشجيرات الريحان بالقرب من الصخرة . ورأى ثلاث نسوة بالقرب من القبر . كانت مريم المجدلية واحدة منهن والأخرى تلك المرأة التى قال إنها أمه . أما الثالثة فكانت امرأة يعرفها باسم حنة . تطلع إلى فوق فرآهن جميعا ووقعت أبصارهن عليه فدخل الخوف فى قلوبهن .

وقف مشدوها على مبعدة عارفا أنهن جئن إلى هناك ليطالبن بجسده . ولكنه لن يعود إليهن بأى حال من الأحوال . وشاهد شحوبهن فى ظلال الصباح الداكن الذى ينثر قطرات المطر . فأدار رأسه بعيدا عنهن .ولكن مريم المجدلية أسرعت نحوه قائلة :

«لم أحضرهن فقد جئن من تلقاء أنفسهن . انظر ، إنى جلبت لك نقودا ! لم لا تتحدث إليهن »

وقدمت إليه بعض القطع الذهبية ، فتناولها قائلا :

«هل لى أن أحتفظ بهذه النقود ، سأحتاج إليها ، لا أستطيع أن أتحدث إليهن لأنى لم أصعد بعد إلى الأب . ويجب على أن أترككن الآن .

سألته مريم المجدلية : «إلى أين تذهب؟» .

نظر إليها ، فأدرك أنها تحاول وضع يدها على الرجولة فى الرجل الذى كان قد مات . تلك الرجولة التى عرفها فى شبابه ورسالته وطهارته وخوفه وفى حياته الصغيرة وعطائه دون أخذ .

قال : «يجب أن أذهب إلى أبى» .

صاحت وهى تتلفت حولها وتشعر بأنها لا تزال تستعذب الحسرة والكمد القديم :

«وتتركنا ؟ هذه هى أمك!» .

«ولكن يجب أن أصعد الآن إلى أبى » قال هذا ثم تراجع بين الشجيرات والتفت بسرعة وابتعد وهو يحدث نفسه قائلا : «لست الآن أنتمى إلى أحد ولا تربطنى بأحد صلة . ورسالة الإنجيل قد تركتنى . يا للحسرة فأنا لا أستطيع حتى أن أصنع حياتى وما يتعين علىّ إنقاذه .. وفى مقدورى أن أتعلم كيف أكون بمفردى ».

ولهذا رجع إلى دار الفلاح وزوجته وإلى الفناء حيث كان الديك الشاب مربوطا من رجله بدوبارة . وكان لا يريد أن يرى أحدا ، فقد وجد أنه من الأفضل له أن يبقى بمفرده لأن وجوده بين الناس أشعره بالوحدة والوحشة .

وضمدت الشمس وطيب الربيع الناعم جروحه . حتى الجرح المفتوح فى أحشائه الناجم عن خيبة أمله فى أحلامه وآماله بدأ يندمل . وأيضا تماثلت إلى الشفاء حاجته إلى الرجال والنساء ورغبته المحمومة فى الوصول إليهم وفى أن يقوموا بخلاصه . وكل الذى جاء نتيجة اتصاله باللمس مع البشر ينبغى من الآن فصاعدا أن يجئ دون عدوان أو تجاوز أو ارغام . قال لنفسه : «لقد حاولت إرغامهم على العيش فأرغمونى على الموت . وهذا هو حال الإرغام دائما . إن الارتداد يعوق التقدم . والآن حان وقتى كى أكون وحيدا .

ولهذا توقف عن الذهاب إلى البستان ، وظل راقدا بلا حراك وهو يتطلع إلى الشمس أو يتمشى عند الغسق عبر منحدرات الزيتون وسط أعواد القمح الخضراء التى نمت فى كل يوم مشمس شبرا أعلى مما كانت عليه ، ودائما ما فكر هكذا : «يا له من شئ طيب أن أكون قد أوفيت رسالتى وتجاوزتها . الآن أستطيع أن أكون بمفردى وأترك جميع الأشياء لذاتها . لتصبح شجرة التين

جرداء إذا شاءت ذلك ، وليبق الأثرياء على ثرائهم . إن طريقى يخصنى وحدى .

وتجمعت الأوراق الوارفة على شجرة التين ، ودماء الشجرة الوضاءة الرقراقة الخضراء يسرى فى عروقها . وصار الديك الشاب أكثر لمعانا وتلألؤا مع زيادة سخونة الشمس المحرقة . وغربت الشمس أكثر وأكثر فى بهاء وجلال عن الهواء الأحمر الوجنتين والموشى بالذهب . وكان الرجل الذى مات واعيا وعيا تاما بكل شئ . وفكر هكذا :

«ليست الكلمة إلا حشرة همجة صغيرة تلدغ فى المساء . إن الانسان تعذبه الكلمات التى تشبه حشرات الهمجة الدقيقة وهى تتبعه حتى جوف القبر . ولكنها لا تستطيع أن تذهب أبعد من القبر . لقد مررت الآن على المكان حيث تعجز الكلمات عن اللدغ وحيث يصفو الهواء . ليس هناك ما يقال وأنا وحيد داخل جلدى الخاص بى الذى يكون الجدران التى تحيط بكل أملاكى» . وهكذا برأ من جراحه وتمتع بخلود حياته الخالية من التوتر لأنه أسقط عنه وهو فى القبر تلك الخية الخانقة التى نسميها الحرص ، لأنه ترك فى القبر نفسه التى تحاول جاهدة والتى تحرص وتؤكد ذاتها . وشفيت نفسه التى لا تهتم وأصبحت متكاملة داخل جلده .

وابتسم لنفسه فى انفراد خالص هو نوع من الخلود . عندئذ قال لنفسه :

«سوف أجوب الأرض والتزم الصمت . فلا شىء أكثر مدعاة للعجب والإدهاش من أن يكـــون المرء وحيدا فى عالم الظواهر الذى يمور بالحيـــاة الصاخبة ، ولكنه رغم ذلك عالم قد انفرط عقده . إننى لم أر هذا العالم فقد أعمانى عنه ما أشعر به من اضطراب داخله . سوف أجوب فى حركة عالم الظواهر لأن لا شئ يتركنى وحيدا وحدة خالصة سوى حركة جميع الأشياء وسط نفسها ».

واستغرق فى ذاته يتأملها ويستكنهها ، وقرر أن يكون طبيباً مداويا لأنه لا يزال يمتلك القوة التى تشفى أى إنسان أو طفل يثير عطفه ويلمس شغاف هذا العطف . ولهذا قام بقص شعره وحلاقة لحيته طبقا للموضة اللائقة ، وابتسم لنفسه . وأحضر لنفسه أحذية والوشاح اللائق كما لبس اللباس اللائق فوق رأسه فخبأ كل الندوب الصغيرة فيه ، قال الفلاح :

«يا سيد هل تتصرف عنا ؟».

«نعم فقد حانت ساعتى كى أعود إلى الناس» .

وأعطى الفلاح قطعة من النقود وقال له :

«أعطنى الديك الذى هرب منك والمربوط الآن من رجله لأنى سوف آخذه معى» .

وهكذا أعطى الفلاح الديك للرجل الذى مات مقابل قطعة من النقود . وعند انبلاج الفجر خرج الرجل الذى مات ليبدأ رحلته فى عالم الظواهر ويكتمل فى وحدته ووحشته فى قلب هذا العالم لأنه فيما مضى استغرق فيه أكثر من اللازم ، وبعدئذ قضى نحبه والآن يتعين عليه أن يعود وأن يكون وحيدا وسطه . ورغم ذلك فإنه حتى الآن لم يذهب لوحده تماما ، لأنه عند انصرافه حمل الديك تحت ابطه بينما كان ذيله يرفرف ، وقد اشرأب رأسه فى اضطراب لأن الديك أيضا خرج ليغامر لأول مرة فى عالم الظواهر الفسيح المشتمل كذلك على حركة مجموع الديوك . وذرفت المرأة الفلاحة عبرات قليلة ، ولكنها دخلت الدار بعد ذلك لتتفحص مرة أخرى - وهى الفلاحة - قطع النقود . وبدا لها أن بريقا مدهشا ينبعث من قطع النقود .

واستمر الرجل الذى مات فى سيره وكان يوما مشمسا ، والتفت حوله وهو يمضى فى طريقه ووقف جانبا عند مرور القطار المزدحم بالركاب والمتجه إلى المدينة وقال لنفسه :

«عجيب هو عالم الظواهر ، فهو يجمع بين القذارة والنظافة فى آن واحد ! إنى لم أتغير ورغم ذلك فإنى مفكك الأجزاء والحياة

تمـور فـي تنوعـهـا . لماذا أردت من الحـيـاة أن تمور على نفس الوتيـرة . إنه لشئ مـؤسف ! لقـد كنت ألقى المواعظ عليـهم ومن المحتمل أن تتحول الموعظة إلى كتلة من الطين وأن تغلق النافورات أكثر مما تغلقها تلاوة مزمور أو الشدو بأغنية . إننى ارتكبت خطأ . فقد ظننت أنهم أعدمونى بسبب إلقائى المواعظ عليهم غير أنه لم يكن باستطاعتهم فى النهاية أن يقوموا بإعدامى ، لأننى الآن قد قمت من الأموات فى وحشتى وورثت الأرض لأنـى لا أطالب لنفسى باى حق فيها . وسوف أكون وحيدا فى فورة جميع الأشياء . وفوق كل شئ وقبل كل شئ سوف أشعر أبدا بالوحشة والانفراد ولكن يجب على أن ألقى بهـذا الطائر فى الثـورة التى يمور بها عـالم الظواهر لأنه يتعين عليه ركوب الموجة . كم هو يتدفق بدفء الحياة! وسريعا سوف أتركه فى مكان ما بين الدجاجات ، وربما أقابل فى إحدى الأمسـيات امرأة تستطيع غـواية جسـدى الذى قام من الأمـوات وتتركنى بالرغـم من ذلك فى انفـرادى لأن جسد رغباتى قد مـات . ولسـت ألمس أحـدا فى أي مكان . ولكني كيف أعرف ! فكل شـئ على أقـل تقدير هو الحـيـاة . ويلمع هذا الديك بالانفـراد البـراق رغم أنه يسـتـجـيب لاغـراء الدجاجات . وسوف أسـرع للوصـول إلى تلك القرية الواقعة

على التل أمـامـى . لقـد دب فى الاعـيـاء والوهن . وأريد أن أغلق عينى فلا أرى شيئا » .

وأسـرع قليلا تحدوه الرغبة فى الانتهاء من سيره ، حتى لحق برجلين يمشـيـان فى بطء ويتـبـادلان الحـــديث ، وتذكـرهمـا لأنه عرفهما أثناء حياته التى اضطـلـع فيها برسالته . وحياهما ، لكنه لم يكشف عن نفســــه فى الغسق فلم يتعـرفا عليه ، قال لهما : «ماذا حدث للرجل الذى قال إنه سـيصـير ملكا والـذى قتل من أجل ذلك ؟»

فردا عليه بريبة وشك :

«ماذا يدعوك للاستفسار عنه ؟» .

«كنت أعرفه وفكرت كثيرا فى أمره» :

أجابا قائلين : «إنه قام من الأموات» .

«إيه ! أين هو وكيف يعيش؟» .

«لا نعرف لأنه لم يكشف لنا عن هذا الأمر . ومع ذلك فقد قام من الأموات وسوف يصعد إلى الأب بعد وقت قصير» .

«إيه ! وأين يوجد الأب» .

«أنت لا تعرف فلابد وانك من غير اليهود ! الأب موجود فى السماء فوق السحاب وقبة السماء» .

«وهل هذا حقيقى ؟ إذن كيف سيصعد ؟» .

.. إنه سيصعد فى مجده مثلما صعد النبى إليا»

«حتى إلى السماء ؟» .

«نعم إلى السماء».

«إذن فهو لم يقم من الأموات بجسده ؟» .

«بل قام بجسده» .

«هل سيأخذ جسده معه إلى السماء» ؟ ».

«الأب الذى فى السماوات سوف يرفعه» .

وأمسك الرجل الذى مات عن الكلام لأن كلماته قد انتهت ، ولأن الكلمات تلد الكلمات تماما مثلما تتكاثر بعوضة البرعشة . ولكن الرجل بادر بسؤاله :

«لماذا تحمل ديكا معك؟» .

«إننى أقوم بالشفاء . وهذا الديك يتحلى بالفضيلة» .

«أو لست تؤمن ؟» .

«إنى أومن بأن الطائر مفعم بالحياة والفضيلة» .

وساروا بعد ذلك فى صمت ، شعر بأنهم يكرهون إجابته . فابتسم لنفسه لأن الظاهرة الخطرة فى العالم تتمثل فى

رجل تتسم معتقداته بالضيق وانتفاء الرحابة وينكر حق جاره في آن يترك وشأنه . وعندما جاءوا إلى أطراف القرية وقف الرجل الذى مات ساكنا لا يتحرك فى عتمة المساء . وقال بصوته العجوز الهرم :

«ألستما تعرفانى ؟» .

فصاحا بخوف : «يا سيد ! » .

أجاب وهو يطلق ضحكة رقيقة وناعمة : «نعم» ثم استدار بعيدا هابطا فى اتجاه إحدى الحارات الجانبية . واختفى خلال أسفل الحائط قبل آن يدركا ذلك .

ثم جاء إلى حانة تجمعت فى فنائها صغار الحمير . وطلب بعض الفطائر فصنعوها له . ونام تحت حظيرة ولكنه استيقظ فى الصباح على صياح الديكة المرتفع وسمع صوت ديكه يجلجل فى أذنيه . ثم رأى ديك الحانة يتقدم من أجل القتال مع ديكه تتبعه جماعة كبيرة من محظياته من الدجاج . فهب الديك الذى يحمله الرجل الذى مات قافزا لتبدأ المعركة بين الديكين . وجرى صاحب الحان لينقذ ديكه ولكن الرجل الذى مات قال له :

«إذا انتصر ديكى فسوف أعطيك إياه وإذا خسر فسوف تأكل لحمه » .

وهكذا حارب الطائران بشراسة وتمكن ديك الرجل الذى مات من قتل الديك العادى الموجود فى فناء الحانة . وعندئذ قال الرجل الذى مات إلى ديكه الشاب :

«أنت على أقل تقدير قد وجدت مملكتك كما وجدت إناثا لجسدك . وسوف يكتسب انفرادك روعة يزيد من رونقها اغراء دجاجاتك» .

ثم انصرف تاركا ديكه هناك واستمر فى السير مسافة أبعد داخل عالم الظواهر المتكون من تعقيدات واسعة من التشابكات والاغراءات ، وسأل نفسه سؤالا أخيرا :

«من أى شئ يمكن تخليص هذه الدوامة المحيرة للألباب التى لا تنتهى ثم ماذا يؤدى إليه تخليصها؟» .

ومضى لحال سبيله وكان بمفرده ، غير أن طريق العالم تجاوز التصديق عند مشاهدة التشابك الغريب للعواطف المتأججة . والظروف والإرغام فى كل مكان ولكنه رأى على التوالى أرق الارغام المروع . إن ما يبعث الناس على الجنون هو الخوف .. الخوف النهائى من الموت . ولهذا فقد تعين عليه دائما أن يتحرك إلى الإمام لأنه إذا مكث هناك فسوف يقوم جيرانه بربط خوفهم وبلطجتهم حول رقبته . لم يكن هناك ما يمكن لمسه لأن الجميع فى تأكيد ملتسات للأنا آرادوا

أن يفرضوا الارغام عليه وأن ينتهكوا وحدته النابعة من دخيلة نفسه . إن جنون المدن والمجتمعات والزرافات والجماعات أن تفرض الارغام على الإنسان الفرد بل على جميع الناس بدون استثناء . وجنون الرجال والنساء على حد سواء يكمن في خوفهم الذاتي من فتائهم . وفكر في رسالته التي حملها بنفسه وكيف أنه حاول أن يفرض الحب عنوة على جميع البشر . وعاد إليه الإحساس القديم بالغثيان لأنه لا تقوم لصلة البشر بالبشر قائمة دون محاولة ناعمة ودقيقة لفرض الارغام .. لقد سبق أن أرغم حتى الموت . وتفجر الغثيان بسبب جرحه القديم من جديد ونظر مرة أخرى إلى العالم بنفور وهو يخشى ملمس هذا العالم الدنئ.

(٢)

هبت الريح باردة وعاتية من الأرض الداخلية .. من الثلوج غير المنظورة في لبنان .. ولكن المعبد المواجه للجنوب والغرب في اتجاه مصر كان في مقابلة شمس الشتاء الرائعة وهو يسير في الانحناء المؤدي إلى البحر . وغمر الدفء والتوهج المساحة بين أعمدة الخشب المطلي . ولكن البحر كان خافيا عن الأنظار بسبب الأشجار ، رغم سماع طرطشة الماء بين حفيف شجر الصنوبر .

واكتيسب الهواء اللون الذهبي في فترة بعد الظهيرة . ووقفت المرأة التي تقوم على خدمة ايزيس في ردائها الأصفر وتطلعت بناظريها إلى المنحنيات الشديدة الانحدار المفضية إلى البحر حيث اكتسبت أشجار الزيتون لون الفضة تحت وطأة الريح مثل لون طرطشة الماء المتطايرة . كانت بمفردها باستثناء الإلهة التي كانت معها . وفي فترة بعد الظهيرة الشتوية وقف الضوء منتصبا ورائعا بعيدا عن البحر غير المرئي غامرا تلال الساحل . وذهبت تلك المرأة في إتجاه الشمس خلال أشجار الصنوبر والبلوط الدائم الخضرة في منطقة البحر المتوسط والتي أقيم المعبد في وسطها على لسان صغير من الأرض مغطى بالأشجار يقع بين خليجين .

سارت مسافة قصيرة للغاية وقفت بعدها بين جذوع أشجار الصنوبر الواقعة على الأطراف على الصخور التي تلاطمت بها أمواج البحر وشفطتها في مواجهة المكان المكشوف . حيث تلألأت شمس الشتاء في مجد وعظمة . كان البحر داكنا يكاد يكون شديد الزرقة وينحسر بعيدا عن الأرض يتوجه البياض . وجاءت يد الريح لتمسحه بالظلال على نحو غريب وهي تمسح شجر الزيتون بالفضة على المنحدرات . ولم يكن هناك أي قارب في عرض البحر .

كانت القوارب الثلاثة قد تم سحبها على الحصى الأملس الشديد الانحدار الموجود فى الخليج الصغير بالقرب من البرج الزمادى الصغير . وبمحاذاة حافة الحصى الأملس امتد حائط مرتفع يحيط بحديقة تحتل الجزء المنبسط القصير من الخليج الذى ارتفع على هيئة شرفات أعلى المنحدر الساحلى الشديد الانحدار . وهناك فى أعلى الطريق قليلا ارتفعت دار منخفضة بيضاء داخل سور آخر تطل على البحر . وكانت الدار الفخيمة موحشة وحشة الساحل، وفى مثل بياضه ولكن على ارتفاع أكثر بكثير حيث أخلت شجيرات الزيتون الطريق مرة أخرى أمام أشجار الصنوبر ، امتد الطريق الساحلى وهو يحافظ على ارتفاعه حتى توجد أعلى القنوات العميقة الصناعية المحفورة من أجل تصفية المياه المنحدرة فى اتجاه الخلجان . وانهمرت على كل هذا فى جسلالها شمس يناير الساطعة فى فترة بعد الظهيرة أو لعل هذا كله كان جزءا من الشمس العظيمة والوهج والبلادة ووحشة البحر الطاهرة واللمعان الخالص .

وجرمز بين الصخور أعلى الماء الداكن المترجرج فى صعوده وهبوطه اثنان من العبيد نصف عاريين وهما يعدان طهى الحمام لوجبة المساء . وقام العبدان بقطع رقبة حمامة حية زرقاء اللون

وتركا نقاط الدم تسقط بتركيز شديد فى ماء البحر الذى تأرجح بين الارتفاع والانخفاض . كانا يقومان بتقديم بعض الأضحيات أو بتلاوة بعض التعاويذ . ووقفت كاهنة المعبد وهى تبدو صفراء وبيضاء وبمفردها كأنها زهرة النرجس الشتوية بين أشجار الصنوبر فى شبه الجزيرة المحدبة الصغيرة حيث يختبئ المعبد سرا . وكانت تراقب .

وأسرعت حمامة تجمع بين اللونين الأسود والأبيض والتى يفيض بياضها بالحياة مثل شبح هارب على سطح البحر الداكن المنخفض وانطلقت تلاحق الريح وهى تميل وتعتلى شجر الصنوبر وتحلق طائرة فوق هذه الأشجار لتبتعد عن المكان وتبدو ضبئيلة مثل ذرة الغبار فى الأرض الداخلية . وسمعت الكاهنة صوت صراخ الغلام عيد الحديقة والبالغ من العمر سبعة عشرعاما ، ويرفع الغلام ذراعيه إلى السماء فى غضب بينما ابتعدت الحمامة عنه ومد ذراعيه وهو عريان وغاضب وفى ميعة الشباب . ثم التفت وأمسك بالفتاة وقد اجتاحه غضب عارم ولكمها بقبضة يده الملطخة بدم الحمامة . ورقدت وهى تخبئ وجهها المرتعش السلبى . وأخذت المرأة المالكة لهما تراقب . وبينما هى تراقب إذ بأنظارها تقع على شخص آخر يراقب ... شخص غريب يلبس قبعة عريضة وعباءة رمادية من النوع المغزول داخل المنازل . وهو رجل ذو لحية داكن

البشرة يقف على الطريق المغطى بالحصى والقائم على صخرة هى عنق أرض المعبد الموجود فى شبه الجزيرة . ورأته بسبب تطاير عباعته الرمادية الداكنة فى الهواء ورآها على الصخور مثل زهرة نرجس تجمع بين البياض والصفار بسبب تطاير فستانها المصنوع من الكتان فى الهواء تحت وشاح من الصوف . وراقب كلاهما العبدين .

وفجأة توقف الغلام عن ضرب الفتاة وجرمز من فوقها ولسها محاولا أن يجعلها تتكلم . ولكنها رقدت خامدة تماما ووجهها إلى أسفل على الصخر التاعم . وأحاطها بذراعيه ورفعها ، غير أنها انزلقت على الأرض كأنها جثة هامدة . ولكن السرعة التي انزلقت بها تنم على أنها لم تكن ميتة على الإطلاق . وفى يأس امسك الغلام بها من ردفيها وشدها إلى صدره وقلبها . بدت خامدة كما بدت كل قواها منحصرة فى كتفيها . ودون وعى منه وباصرار قلبها كى يعدلها . ثم دفع كلتا يديه بين فخذيها ليبعد الواحد منهما عن الآخر . وفى برهة اعتلاها بذلك الجنون الأعمى المذعور الذى يشعر به أى مراهق لهيب أولى عواطفه . واهتز جسده الشاب بسرعة ملتاثة وهو يرقد عاريا على جسدها لا يبصر لمدة دقيقة . ثم همد جسمه تماما كما لو كان الموت قد أصابه .

ثم رفع رأسه متلصصا فى رعب . نظر من حوله متلصصا ونهض ببطء على قدميه وهو يعدل من غطاء حقويه المهلهل . وبعدئذ رأى على الصخور البعيدة سيدته كاهنة ايزيس . وما أن وقع بصره عليها حتى تقلص كل جسمه فى خوف . ثم فى حركة غريبة ذليلة وخانعة سار بخطى قصيرة كالأعرج نحو باب الحائط .

والتفتت الكاهنة بعيدا . العبيد ! ليتولى المشرف عليهم أمر مراقبتهم . لم تظهر هذه الكاهنة أى اهتمام . وذهبت ببطء خلال أشجار الصنوبر للمرة الثانية وعادت إلى المعبد القائم فى بقعة صغيرة مكشوفة وخالية من الأشجار .

فى وسط اللسان الأرضى . كان معبدا صغيرا مصنوعا من الخشب مدهونا باللون البنى والأبيض والأزرق ويوجد أمامه أربعة أعمدة خشبية ارتفعت على القمة مثل سيقان براعم زهرة اللوتس المصرية المنتفخة وهى تسند السقف وأيضا تسند زهرات اللوتس المفتوحة ذات النتوءات الحادة الرءوس الموجودة فى الافريز الخارجى الذى استدار حول التجاويف . وأدت سلمتان منخفضتان إلى المنصة الموجودة أمام العمدان وكانت الغرفة خلف العمدان مفتوحة . وهناك انتصب مذبح منخفض من الحجر وفى تجويفه قليل

من الجسمرات وأيضا بقعة الدم الداكن فى تجويفه الأخير .

كانت تعرف المعبد معرفة جيدة فهى التى شيدته على نفقتها الخاصة وأحاطته برعايتها لمدة سبعة أعوام . هناك وقف المعبد بلونيه البنبى والأبيض مثل زهرة فى البقعة الصغيرة المفتوحة والخالية من الأشجار توازره أشجار بلوط سوداء تقريبا لا تغيب الخضرة عنه . وكان ظل بعد الظهيرة يغطى بالفعل قواعد الأعمدة .

ودخلت ببطء وهى تمر عبر الغرفة الداخلية العتمة التى يضيئها لهب مصباح زيت معطر . ومرة آخرى قامت المرأة بإغلاق الباب كما أنها قامت مرة آخرى بإلقاء قليل من حبات البخور على منقد النار أمام الإلهة ومرة آخرى جلست أمام إلهتها فى الظلام الذى كاد يسوده كى تفكر وتنطلق بعيدا فى أحلام الإلهة .

كانت إيزيس ، لكنها ليست ايزيس التى انجبت حوريس . كانت إيزيس التى فنات بعلها .. ايزيس الباحثة . ورفعت الإلهة فى مرمرها المطلى وجهها . ثم خطت وإحدى فخذيها تتقدم الفخذ الأخرى ، وقد ندت عن فستانها هفهفة واهنة وآلم فراقها عن زوجها وانشغالها بالبحث عنه يعتصرها . كانت تبحث عن آشلاء

أوزيريس الممزقة الميتة والمتناثرة على هيئة قطع مبعثرة في كل أرجاء العالم الفسيح . وتعين عليها أن تعثر على يديه وقدميه وفخذيه ورأسه وبطنه وأن تقوم بجمع هذه الأجزاء وتطوى ذراعيها حول الجسد بعد إعادة تجميعه حتى يدب فيه ثانية دفء الحياة فيستطيع احتضانها وإثمار رحمها . واستمر البحث بنشوته وألمه الغريب على مدى أعوام بينما رفعت حلقها ونظرت بعينيها الغائرتين بالداخل في نشوة معذبة ناجمة عن البحث وظهرت سرتها الرقيقة تتوسط بطنها الذى تتفتح براعمه خلال فستانها الواهى الذى يحيط به حزام . ظهرت بسؤالها الأبدى وإلحاف بحثها في الطلب . وخلال الأعوام عثرت على أشلائه قطعة قطعة . عثرت على القلب والرأس وجميع أطراف الجسم . ومع ذلك فهى لم تجد الحقيقة الأخيرة والحل النهائى الذى تستطيع عن طريقه الولوج إليه ... ذلك الحل الذى لا تستطيع بدونه أن تجعله يعود إليها لأنها كانت ايزيس زهرة اللوتس الرقيقة والناعمة . كانت الرحم الذى ينتظر مغمورا وعلى هيئة برعمة تنتظر لمسة تلك الشمس الأخرى الداخلية التى تفيض اشعتها من حقوى أوزيريس الذكر ...

كان ذلك هو السر الذى قامت الكاهنة بمفردها بالحفاظ عليه لمدة سبعة أعوام منذ أن كانت فى العشرين من عمرها حتى الآن

عندما بلغت السابعة والعشرين . وفيما مضى عندما كانت صغيرة غاشت فى أرجاء كثيرة من العالم : فى روما وأفسوس ومصر . فقد كان والدها واحـــدا من ضبـــاط أنطـــونيو ورفاقه ، وحارب مع أنطونيو ووقف بجانبه عنـــد مقتل يوليـــوس قيصر وظـل وفيا لأنطـــونيو حتى الأيـــام التى عـــرف فيها العار . ثم عاد مرة أخرى عبر آسيا عندما غضبت عليه رومـــا وانتهت حياته بمقتله فى الجبال الواقعة وراء لبنـــان . وانسحبت أرمـــلته لا تأمل فى نيل الحظوة لـــدى أوكتـافـيوس وتعيش على ممتـــلكاتها على السـاحل الواقع أسـفل جبال لبنان آخذة معهـا ابنتها بعيـدا عن العــالم وهى فتاة جميلة وغير متزوجة فى التاسعة عشرة من عمرها .

وفى شبابها تعرفت الفتاة بيوليوس قيصر فشعرت بالاحجام والانكماش أمام ضبراوته الشبيهة بضراوة النسر . غير أن أنطونيو ذا الطلعة الذهبية جلس معها لمدة نصف ساعة مرات كثيرة وهو فى روعة أطراف جسده العظيمة ورجولته المتوهجة ، وتحدث معها عن الفلسفات والآلهة لأنه كان من طفولته واقعا تحت سحر الآلهة بالرغم من سخريته منها وأنه نسيها فى زهوه وغروره . ولكن أنطونيو قال لها :

«لقد ضحيت بيمامتين من أجلك ، وقدمتهما إلى فينوس إلهة الجمال لأنى أخشى أنك لا تقدمين أية ضحايا إلى هذه الألهة الحلوة . وحذارى من الاساءة إليها . تعالى وحدثينى عن السبب فى آن زهرتك تسرى فيها البرودة من الداخل إلى هذا الحد ؟ ألم يخترمها شعاع أو نظرة أبدا ؟ تعالى فالعذراء ينبغى أن تتفتح للشمس عندما تميل الشمس نحوها لتربت عليها وتلاطفها .»

وضحكت عينا أنطونيو الواسعتان واللامعتان وهو ينظر إليها ليجعلها تستحم فى توهجه . وشعرت بوهج جمال رجولته الأثير إلى القلب كما شعرت بحبه يغسل كل أطرافها وجسدها . ولكن الأمر كان كما قال ، فقد كانت زهرة رحمها تميل إلى البرودة، بل أنها كادت تكون باردة . ومن ثم تركها أنطونيو وشأنها لأنه كان يبجل والدها الذى أحبها .

. كان ذلك هو الحال دائما . فقد رأت رجالا كثيرين من الشباب والكهول . وبوجه عام أحبت الكهول أكثر مما أحبت الشبان لأنهم كانوا يتحدثون إليها باخلاص ودون أن يتحرك لهم ساكن ، وأيضا دون أن يتوقعوا منها أن تتفتح مثل زهرة تغمرها شمس رجولتهم . وذات مرة طرحت على فيلسوف السؤال التالى : «هل مكتوب على النساء أن يولدن كى يسلمن إلى الرجال ؟» فأجابها

الرجل العجوز : «نادرات هن النساء اللاتى ينتظرن مجئ الرجل الذى ولد من جديد لأن زهرة اللوتس ، كما تعرف لا تستجيب لكل حرارة الشمس الساطعة ، ولكنها تحنى رأسها الخبىء الداكن فى الأعماق ولا يتحرك لها ساكن حتى تشرق فى الليل احدى الشموس النادرة غير المرئية المقتولة والتى توقفت عن التوهج والسطوع بين النجوم فى الأرجوان غير المنظور ، ومثل زهرة البنفسج تبعث أشعتها الأرجوانية النادرة تبدد بها الظلمة . وتستجيب زهرة اللوتس إلى هذه الأشعة وتندى عنها حركة شبيهة بحركة المرء عندما يكون واقعا تحت تأثير التدليل وتنهض إلى فوق خلال فيض الطوفان وترفع رأسها المحنى وتفرش أوراقها وتنضح باتساع لا تعرفه أية زهرة أخرى وتنشر أشعة بركتها الحادة وتقدم أعماقها الذهبية الناعمة التى ليس لها مثيل فى أية زهرة أخرى كى يخترقها الفيض البنفسجى الداكن للشمس التى ماتت وبعثت دون ضجة أو عجيج . ولكن زهرة اللوتس لا تتحرك أو تستجيب ، فضلا عن أنها لن تستجيب أبدا لنهار شمس أنطونيو الذهبى القصير التى تميل إلى الاستعراض والزهو بنفسها ، كما أنها لا تستجيب لشمس القوة الشتوية القاسية المتمثلة فى يوليوس قيصر . هذه الشموس فقط هى التى تفتح البراعم عنوة واقتدار . آه ! إنى أقول لك .

انتظرى من يولد من جديد وانتظرى البرعم الساكن حتى يتحرك ويتفتح .

وهكذا انتظرت لأن جميع الرجال كانوا إما رجالا أو ساسة فى زمن الرومان يؤكدون ذواتهم ، وتظهر عليهم امارات الرجولة والروعة ، فى حين أنهم كانوا يتسمون بخسة داخلية ويعانون من النقص . وتركتها لحالها كل من روما ومصر على حد سواء دون تهيجها أو استثارتها . وحافظت المرأة على أنوثتها فهى لا تقبل تسليم نفسها من أجل وهج ظاهرى أو تتزوج لدواعى المنفعة بل سوف تنتظر حتى تبدأ زهرة اللوتس فى التحرك فى أحشائها .

وبعدئذ عثرت المرأة على ايزيس فى مصر فباحت إليها بسرها وأحضرت ايزيس إلى شواطئ صيدا وعاشت معها تقتسمان سر البحث فى حين أن والدتها التى أحبت تسيير أمور العالم تمتعت بحرية إدارة الضيعة الصغيرة وشئون العبيد .

وعندما استفاقت المرأة من فكرها ونهضت كى تؤدى الطقس الأخير نحو ايزيس ملأت المصباح بالزيت وتركت المحراب بعد أن أوصدت الباب . وكانت الشمس قد غربت بالفعل فى العالم

الخارجي وسرت برودة الشفق الشديدة بين همهمة الأشجار التى استمرت فى الهمهمة رغم انكسار حدة الريح .

ومن ركن سلالم المعبد ظهر رجل غريب يلبس قبعة عريضة داكنة اللون . كان ذا وجه قمحي ولحية مدببة سوداء . وقال للمرأة التى وقفت أعلاه فى وشاحها الأصفر على أحد سلالم الدرج بجوار عمود مطلى باللونين البنبى والأبيض : «آه يا سيدتى التى ابتهل إليها أن توفر لى مكانا احتمى فيه .» كان وجهها مستطيلا وشاحبا بعض الشئ كما كان شعرها الأشقر فى لون الغروب مربوطا تحت شبكة رفيعة مصنوعة من الذهب . ونظرت من علٍ إلى الرجل الشريد بعدم اكتراث . وكان نفس الرجل الذى سبق لها أن شاهدته وهو يراقب العبيد .

سألته : «لماذا نزلت من الطريق ؟»

«رأيت العبد مثل زهرة شاحبة على الساحل فأردت أن استريح بين الأشجار الموجودة فى هذه الناحية إذا آذنت بذلك السيدة القائمة على خدمة الإلهة .»

قالت مجيبة عن سؤاله الأول : «إنها ايزيس الباحثة» .

فأجاب : «عظيمة هذه الإلهة» .

واستمرت فى النظر إليه بريبة وارتسمت ابتسامة واهنة ونائية فى عينيه السوداوين المتطلعتين إليها رغم أن وجهه

كان أجوف بسبب ما كابد من ألم . وخمن الرجل الشريد ترددها وسخر منها .

قالت له : «امكث هنا على الدرج حتى يأتى عبد ليقودك إلى المكان الذى تلجأ إليه»

«إنه لانعام من سيدة مصر» .

ونزلت إلى الممر الصخرى الموجود فى مرتفعات شبه الجزيرة وهى تلبس زوجا من الصنادل الموشاة بالذهب . كم كانت قدماها البيضاوان كالعاج فاتنة وهما يظهران أسفل فستانها الأبيض . وأحنت رأسها الأشقر كالغسق فوق وشاحها الأصفر كالزعفران كما لو كانت تستغرق فى تأملات لا تنتهى . كانت امرأة مستغرقة وكأنها مشبوكة فى حلمها الخاص . وابتسم الرجل قليلا وهو نصف ممرور وجلس مرة أخرى على الدرج لينتظر جاذبا لفاحته حوله فى برودة الشفق . وأخيرا ظهر عبد لابسا جلبابا رماديا خشنا .

قال العبد بقلة حياء : «هل تبحث عن الملجأ الخاص بسيدتنا ؟»

«لا مانع»

«إذن اتبعنى» .

وبقلة حياء فجائية يتميز بها العبد عندما يقوم على خدمة شريد اقتاد الرجل الشاب من خلال الأشجار وأسفلها إلى قناة صرف الماء صغيرة تشق الصخرة حيث توجد فى قلب الظلام شبه السائد مغارة صغيرة تنتثر أمامها قمامة تتكون من نباتات شيطانية طويلة فى الأرض متروكة كانت تنمو فى الأماكن المهجورة من الساحل تحت الصنوبر . كان المكان معتما ولكنه ساكن سكونا مطلقا وخال من صوت الريح . وكان المكان لا يزال يفوح برائحة ماعز غير نفاذة .

قال العبد : «نم هنا لأن الماعز لم يعد يأتى إلى هذا المكان الشبيه بنصف الجزيرة ، والماء موجود هنا !» قال هذا مشيرا إلى الحوض الصخرى الصغير حيث اقترب نبات الخنشار الشبيه بشعر عذراء من حافة ماء يتساقط بغزارة ملء الفم .

وانصرف العبد بعد آن أولى الرجل رعايته مظهرا احتقاره له . ثم صعد الرجل الذى مات إلى حافة شبه الجزيرة حيث سمع ارتطام الموج . وبدأ الظلام يهبط بسرعة كما بدأت النجوم فى الظهور . وانكسرت حدة الريح فى الليل . وفى داخل الأرض ساد الظلام المنحنى المجوف الشديد الانحدار فى اتجاه الشكل العام للقمة المترددة قبالة السماء شبه الصافية . فقط من آن لآخر تراقص لهب مصباح فى اتجاه الدار الفخيمة .

واتجه الرجل الذى مات إلى الملجأ حيث أخرج خبزا من جرابه المصنوع من الجلد وغمسه فى ماء الينبوع الصغير وأخذ يأكل فى بطء . وبعد أن انتهى من أكله وغسل فمه ألقى نظرة أخرى على النجوم اللامعة فى السماء الصحوة التى تهب الريح منها . وبعدئذ أعد أعشاب الأرض المهجورة كى تكون مخدعه . وبعد أن أزاح قبعته وصندله جانبا واستخدم جرابه كوسادة تحت خده استسلم للنوم لأنه كان مرهقا للغاية ، ولكن لسعة البرد أيقظته فى إعياء خلال الليل فقد غلبه التعب والارهاق . وفى الخارج تلألأت نجوم السماء واستمرت الريح فى الهبوب وجلس مقنفدا من البرد وأسلم نفسه لنوع من الخدر . وعند دنو الفجر رقد لينام مرة أخرى .

وفى الصباح كان الساحل لايزال باردا فى منطقة الظل رغم ارتفاع الشمس خلف التلال حين نزلت المرأة من الدار الفخيمة فى اتجاه الإلهة . كان البحر جميلا وشاحبا فى زرقته وجميلا فى جدته . وأخيرا سكنت الريح . ورغم هذا فقد تكسرت الأمواج فى بياضها على عدة صخور قاذفة بالحصى الأملس المتناثر فى الخليج الصغير . ثم سارت المرأة ببطء نحو حلمها ولكنها كانت على وعى بوجود ما يقاطعها .

وبينما هى تتبع عنق الصخرة الصغيرة فى طريقها إلى شبه

الجزيرة صاعدة المنحدر الكائن بين الأشجار والمؤدى إلى المعبد نزل عبد ووقف منحنيا بخضوع وأدب . غير أن اتضاعه كانت تشوبه لمسة من قلة الحياء .قالت له : «تكلم !»

«سيدتى . إن الرجل موجود هناك ولايزال نائما . هل تأذن لى سيدتى بالكلام ؟»

أجابت وهى تشعر بالنفور من العبد : «تكلم !»

«الرجل يا سيدتى مجرم هارب ؟»

وارتسمت أمارات الانتصار على العبد وهو يتفوه بهذه الأخبار غير السارة .

سألته : «وما دليلك على هذا ؟» .

«انظرى إلى يديه وقدميه ! لعل سيدتى تأتى لإلقاء نظرة عليه» .

«خذنى إلى مكانه» .

وقادها العبد بسرعة فوق أعلى التل وهبط بها إلى هاوية سحيقة صغيرة الحجم . وهناك انحنى العبد جانبا وذهبت المرأة خلال فتحة فى اتجاه الكهف . وأخذ قلبها يدق قليلا . انه يتعين عليها قبل كل شئ وفوق كل شئ أن تحتفظ بنقاوة المعبد وطهارته .

كان الرجل الشريد يغط فى النوم واضعا خده على كيس نقوده وتلفيحته حول جسده . ولكنه قام بلوى قدميه العاريتين المتسختين احداهما بجانب الأخرى حتى تحتفظا بالدفء . وكان يقبض على يده أثناء نومه . ورأت الجروح فى جلد قدميه الشاحب واللتين كان حزام الصندل يغطيهما فى العادة ، كما رأت ندوبا فى كف يده الطليقة .

لم تكن تهتم بالرجال وخاصة الرجال المنتمين إلى الطبقة السفلى الخانعة . ورغم ذلك نظرت إلى الوجه النائم . كان وجها أجوف متعبا يميل إلى القبح . ولكنها استطاعت بفضل كونها كاهنة الحياة الأعمق . بل لاح ضرب من الجلال فى حاجبيه السوداوين وفى خديه الأجوفين الساكنين . ورأت أن شعره الأسود الذى تركه ينمو طويلا بخلاف عادة الرومان به لمسة من البياض عند السوالف كما نمت بعض خيوط شعره الأبيض فى لحيته السوداء المدببة . ولكن هذا البياض كان يرجع إلى ما كابده من عذاب وسوء حظ . ولا غرو ، فقد كان الرجل فى عز شبابه . فضلا عن أن جلده الذى اقترب لونه من لون الغسق كان لايزال يحتفظ بلمعة الشباب الفضية . وكان عذابه الأليم ينطق بالجمال كما ارتسم الاخلاص الهادئ الغريب .. اخلاص الحياة البديعة الرائعة على كل القبح الناعم الرقيق الذى يكسو وجهه . وللمرة الأولى

ارتجف كيان المرأة عند رؤية الرجل ، كما لو كانت قد لمسها طرف لهب العيش البديع. وهى المرة الأولى التى تحس فيها بذلك فقد استثار الرجال فيها قبل ذلك كل أنواع المشاعر . ولكن أحدا لم يلمسها أبدا بطرف الحياة الملتهب .

رجعت أسفل الصخرة حيث كان العبد فى انتظارها . قالت : «ليكن فى معلومك أنه ليس مجرما بل مواطنا حرا جاء من الشرق . فلا تزعجه . ولكن احضره إلى عندما يصحو من نومه . قل له إنى أريد الحديث معه» .

تكلمت فى برود لأنها وجدت أن العبيد على اختلافهم يتسمون بشئ منفر بل مقرز إلى حد ما . فهم مطمورون فى الحياة السفلى وشهيتهم ووعيهم الصغير يدعوان بعض الشئ إلى الاشمئزاز . ومن ثم ربطت حلمها حول نفسها ، وذهبت إلى المعبد حيث قامت فتاة من العبيد باحضار ورود الشتاء والياسمين من أجل المذبح ، ولكنها فى ذلك اليوم شعرت بالاضطراب حتى أثناء اعدادها للطقوس .

وارتفعت الشمس متلألئة فوق التل وسقط ضوؤها بفوز على ساحل شبه الجزيرة الصغير الذى تغطيه أشجار الصنوبر كما

سقط الضوء على المعبد ذى اللون البنبى فى جدة تتسم بطهارة البداوة .

وصحا الرجل الذى سبق أن مات من نومه ، ولبس الصندل كما لبس قبعته وعلق كيس نقوده تحت ملفحته . ثم خرج ليشاهد الصباح فى كل رقته وفى كل لونه الذهبى الجديد . ونظر إلى زهرة النرجس الصغيرة التى اختلط فيها اللون الأصفر باللون الأبيض وهى تلمع وتتلألأ بين الصخور . ورأى العبد فى انتظاره وكأنه خطر يتوعده .

قال العبد : «سيدى إن سيدتنا تود أن تتحدث إليك فى معبد إيزيس» .

فقال الرجل الجائل : «حسنا» .

ومضى فى بطء وتوقف لمشاهدة البحر الأزرق الشاحب وكأنه زهرة يانعة هادئة لا يتحرك لها ساكن ، والحافات البيضاء الموجودة بين الصخور مثل الزهور النامية فى الصخور البيضاء والمنحدرات الجوفاء تنحرف عن مسارها وهى ترتفع من الشاطئ يكسوها اللون الرمادى بسبب أشجار الزيتون والخضرة بسبب لون القمح فى شبابه النضير حيث توجد الدار الفخيمة البيضاء الصغيرة . كان كل شئ جميلا ونقيا فى صباح شهر يناير .

وسقطت الشمس على ركن المعبد وجلس على الدرج في ضوء الشمس وهو ينتظر بصبر ليس له حدود . عاد إلى الحياة ولكنها ليست نفس الحياة التى تركها ، تلك الحياة التى يحياها صغار القوم وتكونها صغار الأيام التافهة . ولأنه ولد من جديد فقد كان في الحياة الأخرى التى تشكل اليوم الأعظم من الوعى الإنسانى. وكان بمفرده وبمعزل عن اليوم التافه الصغير لا تربطه أية صلة بالناس العاديين ممن يراهم المرء كل يوم . لم يكن بعد قد قبل التحذير الذى لا رجعة فيه بألا يلمسه أحد. وهو التحذيرالذى يفصل المولودين من جديد عن السوقة . وكان الانفصال مطلقا . وجاء إلى المعبد فشعر بالسلام يغمره .. ذلك السلام الوثنى القوى الوضاء مع عداوة العبيد أسفل المكان .

دلفت المرأة من خلال باب المعبد الداخلى المعتم آتية من المحراب .. ووقفت هناك مترددة ، استطاعت أن ترى هيئة الرجل ذى البشرة القمحية وهو جالس فى صمت مروع كان فى نظرها بمثابة نذير بالشر . وهو صمت يتسم فى صبره بشئ يكاد يمثل تهديدا لها .

وتقدمت نحو غرفة المعبد الخارجية . وشعر الرجل بقدومها فنهض واقفا . وخاطبته باللغة اليونانية فقال لها :

«إن معرفتى باللغة اليونانية محدودة يا سيدتى . اسمحى لى بالتحدث بالسوريانية» .

سألته بلهجة متعجلة تناسب انشغالها بوصفها كاهنة :

من أين جئت ؟ وإلى أين تذهب ؟

أجاب ببطء : «جئت من الشرق فيما وراء دمشق الشام . وسأذهب إلى الغرب حيثما استطعت إلى ذلك سبيلا» .

ونظرت إليه بحياء وقلق مفاجئين . وسألته فجأة دون أية مقدمات : «ولكن لماذا تحمل أمارات المجرمين ؟»

سألها وهو جد منهك : «هل كانت كاهنة الإلهة ايزيس تتلصص على أثناء نومى ؟»

قالت : «العبد هو الذى حذرنى ولفت انتباهى إلى يديك وقدميك» .

تطلع إليها ثم قال :

«هل تسمح لى كاهنة الإلهة ايزيس أن أودعها ثم أمضى لحال سبيلى؟»

وهبت ريح مفاجئة فرفعت لفاحته وقبعته فوضع يده ليمسك بطرفيهما فرأت مرة أخرى الجرح على يده البنية النحيلة .

قالت مشيرة إلى الجرح : «أنظر. هو ذا الجرح !»

قـال : «ومع هذا فـإنى أودعـك وأقـدم فـروض الطاعـة والولاء لايزيس . وشكرا لأنك سمحت لى بالنوم» .

كان على أهبة الانصراف . ولكنها تطلعت إليه بعينين زرقاوين مدهشتين .

قالت باندفاع مفاجئ : «ألا تود أن ترى إيزيس ؟»

عندئذ تحرك داخله شئ شبيه بالألم.

قال : «أين هى ؟»

قالت : «تعال !»

وتبـعـهـا إلى المحراب الداخلى فى الظلمـة التى تكاد تسـود . وعندما ألفت عيناه وهج المصباح الواهن رأى الإلهة تسير بخطى واسعـة كأنها سـفينة وتشـعر باللهفـة أثناء دوران حركـة ردائها. وانحنى أمامـها تأدبا واجلالا . وقال : «ما أعظم إيزيس فهى فى بحثها أعظم من الموت . ورائعة هى مشيتـها كامرأة ومدهش هو هدفها . فجميع الرجال يقرظونك يا ايزيس فأنت فى نظرهم أعظم من الأم .»

وسمعت كاهنة ايزيس هذه الكلمات ، وألقت البخور فى منقد النار ثم نظرت إلى الرجل وسألته :

«هل أنت على ما يرام هنا ؟ وهل أحضرتك ايزيس إلى الدار كى تكون لها.»

تطلع إلى الكاهنة بدهشة وانزعاج .

قال : «لست أدرى» .

ولكن المرأة كانت تفكر أن هذا الرجل هو أوزيريس المفقود . تحركت الخلجات في أعماق روحها . وكان اضطرابها شديدا . ولم يرغب في البقاء داخل المحراب الضيق المعطر الذى يسوده الظلام . وخرج مرة أخرى ليواجه الصباح والهواء البارد . وشعر باقتراب شئ منه كي يلمسه . وكان كل جسده نسيجا من الألم والنهى بألا يلمسه أحد . نعم بألا يلمسه أحد .

واتجهت المرأة إلى المكان المكشوف بشغف خائف : أما هو فقد انصرف بعيدا :

«آه . لا تذهب أيها الغريب . آه ، امكث قليلا مع ايزيس !»

ونظر إليها .. إلى وجهها المتفتح كالزهرة كما لو كانت الشمس قد اشرقت فى روحها . ومرة أخرى تحرك حقواه .

سألها : «هل ستؤخرينني يا ابنة أيزيس ؟»

أجابت : «أمكث ! فأنا على يقين من أنك أوزيريس !»

وضحك فجأة قائلا : «ليس بعد» . عندئذ نظر إلى وجهها المحزون ثم أردف بقوله : «ولكنى سأنام ليلة أخرى فى كهف الماعز إذا شاءت ايزيس هذا» .

وضمت كلتا يديه تغمرها السعادة الطفولية الخليقة بأن تشعر بها الكاهنة .

قالت : «آه سوف تغمر السعادة إيزيس !»

ولهذا هبط إلى الشاطئ في انزعاج قائلا لنفسه :

«هل اسلم نفسى لهذه اللمسة .. هل أسلم نفسى لهذه اللمسة . لقد قام البشر بتعذيبى حتى الموت بلمساتهم ؛ ورغم هذا فإن كاهنة إيزيس هى شعلة الشفاء الرقيقة. اننى طبيب ومع ذلك فإنى لا أملك القدرة على الشفاء مثل الشعلة التى تملكها هذه الفتاة الرقيقة . فيالها من شعلة تلك التى تحظى بها هذه الفتاة الرقيقة ! هى مثل نبات الكركم الشاحب الذى ينمو فى الربيع . كيف كنت لا أبصر هذا الشفاء أو نعمة جسد هذه المرأة الرقيقة الشبيهة بزهرة الكركم . يا لها من رقة . إنها أفظع وأجمل من الميتة التى متها ..»

ثم اصطاد من الصخور سمكا ذا أصداف واستمتع بأكله . وتعجب من مذاق البحر البسيط . كان يهتز فرقا بداخله وهو يفكر :

«هـل أجرؤ على لمس هذه المرأة ؟ إن هذا أكثر بعداً من الموت . لقد جسـرت على أن أتركـهم يلقـون القبض على ويصـدرون على حكما بالموت . ولكن هل اجرؤ على ملمس الحياة الرقيقة ؟ آه ! إن هذا أكثر صعوبة ...»

ولكن المـرأة دخـلت المحـراب مـرة أخـرى وجلسـت مستغرقة فـى تأمـلاتهـا الخـالصـة خلال السـاعات الطـوال وهى تراقب خطى الالهـة التى تتحـرق شـوقا منحـرفة عن مسـارها وسـرة بطنـهـا الشـبيهة بالبرعمـة تشـبه خاتم عـلى حشـيث البحث البكر ، وأسلمت نفسـهـا إلى فيـض الأنوثـة وتحـريض إيزيـس الباحثـة . .

وقرب غـروب الشـمس ذهبـت إلى شبه الجزيرة لتبـحث عنه فـوجـدت أنـه قـد ذهــب ناحيـة الشــمس مثلمـا فعلت هى فى اليوم السـابق جـالسـا عـلى أنصـال الصنوبر الموجـودة أسـفل الشـجرة حيث كـانت تقف عندمـا رأته لأول مرة . واقـتـربت الآن ببطء وهــى تهـتـز خـوفـا من أن يكون غـير راغب فـيـهـا . ووقفت بجواره وهـى مختفية عن الأنـظار حتى رفـع رأسـه ليـراهـا فجأة من تحت قـبعته الـعـريضـة ورأى الشـمس المتجـهة إلـى الـغرب على شـعرهـا المعقـود . ورغم أنـه ارتج عليه بسـبب مرآهـا فإنه كان يتوقعها .

قال مشيرا إلى الدار الفخيمة القصيرة البيضاء على منحدر أشجار الزيتون:

«هل هذا بيتك؟»

«هو بيت أمى . هى أرملة وأنا ابنتها الوحيدة».

«وهل كل هؤلاء عبيدها؟».

«فيما عدا من أملك من عبيد».

وتقابلت عيونهما للحظة . سألها :

«هل تجلسين أيضاً لرؤية غروب الشمس؟».

لم ينهض كى يتحدث إليها . فقد كابد من الألم أكثر مما ينبغى. وهكذا جلست على أنصال الصنوبر الجافة ذات اللون البنى . وضمت وشاحها الذى كان فى صفرة الزعفران حول ركبتيها . وخرج قارب من الوهج المكشوف ليدخل الخليج الذى تكسوه الظلال . كان العبيد يرفعون شباكهم الصغيرة وصوت لغوهم يطفو على سطح الماء.

قال: «هل الدار الفخيمة بمثابة بيت لك؟».

ردت بقولها : « ولكنى أقوم على خدمتها فى بحثها .»

ونظر إليها ، كانت مثل سحابة رقيقة مستغرقة فى الفكر ونائية بعض الشىء. ولسعته روحه بمشبوب عواطفها وتعاطفها.

قال لها بجدية مفاجئة : «لعلك تجدين رغبتك أيتها العذراء».

سألته : «ألست أوزوريس ؟» . احمرت وجنتاه . أجاب:

«نعم إذا سمحت لى بالشفاء! فمازلت أعانى من انعزالى بسبب موتى، ولا سبيل للفكاك من ذلك.»

نظرت إليه برهة فى خوف من شمس عينيها الزرقاوين الناعمتين. وبعدئذ خفضت رأسها . وجلس الاثنان فى صمت يتمتعان بدفء الشمس الغاربة ووهجها . جلس كلاهما ، الرجل الذى سبق له أن مات والمرأة المنصرفة إلى البحث الخالص .

كانت الشمس تميل إلى أسفل فى اتجاه البحر فى روعة الشتاء العظيم . سقطت أشعة الشمس على أجساد العبيد العارية الوضاءة بأفخاذهم العريضة الوردية ورءوسهم السوداء الصغيرة وهم يجرون لنشر شباكهم على الشاطىء المغطى بالحصى . كان إله الرعاة الذى يفيض قلبه بكل التسامح يراقبهم . إن إله الرعاة المفعم بالتسامح ينبغى أن يظل إلههم إلى الأبد .

ونهضت المرأة عندما غاصت حافة الشمس فى الماء قائلة:

«إذا مكثت فسوف أرسل لك زادا وغطاء .»

«وماذا ستقول السيدة أمك؟»

وألقت عليه كاهنة إيزيس نظرة غريبة تشوبها مسحة من الشك.

قالت : «هذا ملك لي.»

ابتسم ابتسامة واهنة وهو يستشرف الصعاب. قال :

«هذا حسن».

وراقبها وهي تذهب في حركة غريبة مشغولة البال كالتي تميز من يفكرون في أنفسهم فقط . خفضت رأسها البني اللون قليلا وقد التف الكتان الأبيض حول كعبيها اللذين كانا في لون العاج . ورأى العبيد العرايا وهم يقفون كي ينظروا إليها بقدر من الاندهاش بل بقدر من الشقاوة الشريرة المضمرة . ولكنها مرت مشغولة الفكر خلال الباب في الحائط المقام على الخليج.

وجلس الرجل الذي سبق أن مات أسفل الشجرة المطلة على الشط لأن كل شيء كان يحدث على الشط الصغير . وكانت الإماء لا يزلن يغسلن الكتان عند ينبوع الماء الصغير الذي يجري حول ركن حائط العقار ، بينما جاء بين الفينة والفينة صوت ارتطام أجوف نتيجة خبط الغسيل على الأحجار الملساء في تجويف البركة الصغير المظلم . وانتشرت في الجو رائحة نفايات الزيتون . وأحياناً جاء خافتا ضجيج الرحى وهي تطحن الزيتون داخل البستان ، وكذلك صوت العبد مناديا على الأتان كي تحضر إلى

الطاحونة . وبعدئذ دلفت امرأة من مدخل الباب بيضاء الشعر ولابسة وشاحا من الصوف المائل إلى البياض ، وتبعها رجل رومانى عارى الرأس ويرتدى الشملة الرومانية . وكان هذا الرجل على الأرجح تابعاً لها أو المشرف على شئونها . ووقف الرجل والمرأة فى بقعة يغطيها الحصى الأملس أعلى سطح البحر وألقى حوله نظرة سريعة . وأحنى العبيد ذوو البشرة الحمراء والعجز العريض رءوسهم أذلاء خانعين ومستغرقين فى التفكير فوق الشباك التى كانت نظيفة عندما قاموا برفعها . والنسوة اللائى يغسلن الكتان يدفعن بكفوفهن بهمة ونشاط فى الغسيل . وأحنى الرجل العجوز رأسه – وهو يستغرق فى التفكير على حافة الماء – يغسل ما اصطاد من أسماك وحيوانات مائية . وشاهدا أيضاً الرجل الغريب صامتا وبمفرده جالساً أسفل الشجرة على صخور شبه الجزيرة . ولاحظ الرجل الذى سبق له أن مات انهم يتحدثون عنه . ونظر من عالم شبه الجزيرة المقدس الصغير إلى العالم العادى الذى رأى أنه لايزال يناصبه العداء.

كانت الشمس تلمس البحر وامتد عبر الخليج الصغير ظل الأرض المرتفعة ذات السنم الموجودة فى الناحية المقابلة . وخطت المرأة العجوز بتثاقل على حصى البحر الأملس الذى صار الآن

أزرق وباردا فى الظل ، وحـتى ترى فى الظل أيضـاً السـمك المفروش فى سلة الرجل العجوز المسطحة وهو يجرمز على حافة الماء . كان عبدا عجوزا عارى الجسد ذا أرداف واكتاف ممتلئة وقد تلألأت قبل اختفائها الشمس الغاربة على جسده البرتقالى الناعم الذى ترتسم عليه مسحة من الجمال . وظل العبد العجوز ينظف السمك وهو مشغول البال دون أن يتطلع إلى أعلى ، كما لو كانت السيدة هى ظلال الغسق الساقطة عليه.

ثم خرجت فتاتان أمتان من البوابة تحملان سلتين مسطحتين على رأسيهما وبرز فى احدى السلتين إناء الخمر وإناء الزيت المصنوعين من الفخار وهما مائلان ميلا خفيفا . وفوق حصى البحر الكثيف تحت الحائط جاءت الفتاتان كما جاءت كاهنة ايزيس فى وشاحها الزعفرانى لتسير فى الغسق خلفهما . كانت الشمس لاتزال تسطع على سطح البحر فى حين سادت الظلال هنا فى هذا المكان . ووقفت الأم التى وخط المشيب شعر رأسها على حافة البحر لتراقب ابنتها التى كسا اللونان الأصفر والأبيض كل جسمها، والتى ساوت رأسها الأشقر الأربد وهى تتمايل دون أن تبصر أو تلتفت خلف الفتاتين الأمتين فى اتجاه عنق الصخرة فى شبه الجزيرة . وكانت الابنة تمشى مستغرقة فى الفكر وكأنها فى عالم آخر . ودون أن تتحرك من مكانها أخذت الأم المتقدمة فى

السن تراقب موكبا من ثلاثة أشـــخاص وقد اصطفوا على قمة الأرض العـــالية بـــين الأشجار . ثم اختفى المـــوكب وقد حجبته الأشجار. ولم يرفع أى من العبيد رأسه لينظر . ثم استمرت المرأة ذات الشعر الأبيض فى مراقبة الأشجار حيث اختفت ابنتها . ونظرت مرة أخـرى إلى أسـفل الشجرة حيث كان الرجل الذى سبق أن مات لايزال جالساً غير مرئى الآن بسبب اختفاء أشعة الشمس الساقطة عليه. ولم يلمع سوى نصل البحر النائى فقط . وكان الوقت مساء . فليتذرع بالصبر وليأخذ القدر مجراه.

سارت الأم بخطى وئيدة نحو حصى البحر الأملس . لم تكن خطوتها طويلة ومتأرجحة ومستغرقة في الفكر مثل ابنتها . ولكنها مشت بخطى قصيرة ، عاقدة العزم والتصميم . ثم هبط من فوق الصخور من الناحية المقابلة عبدان عاريان يعدوان وهما يحملان على اكتافهما ربطا ضخمة من الزرع الأخضر الداكن ، لدرجة أن أرجلهما العريضة العالية تلألأت تحت جسديهما مثلما تتلألأ أرجل الحشرات، كما اختفى رأساهما عن الأنظار . جاءا يعدوان عبر الحصى الأملس لا يلتفتان إلى شيء ولا يلويان على شيء ، عندما وجه فجأة المشرف ذو المنظر الروماني خطابه إليهما . فتوقفا في مكانيهما مسمرين، ووقفا غير مرئيين تحت رأسيهما المثقلين

بالأحمال، كما لو كانا سيختفيان عن الأنظار تماماً . ولكنهما الآن تسمرا فى مكانهما ، عندئذ امتدت يد مشيرة إلى شبه الجزيرة ... وبعد ذلك استمر العبدان المحملان بالخضرة فى العدو .. نحو أطراف المعبد وانضمت المرأة ذات الشعر الأشيب إلى الرجل . وببطء اجتاز الاثنان الباب مرة أخرى وسارا فى البقعة المغطاة بحصى البحر الأملس إلى مكان الدار الفخيمة . ثم نهض العبد العجوز ذو الكتفين الممتلئتين وقد شحب شكله فى الظل حاملا صينية السمك المصطاد من البحر . ونهضت المرأة من البركة بحيوية ولونها كالغسق وهى تجمع الكتان المبلل فى كومة فوق السلال المسطحة . وقام العبيد الذين نظفوا الشبكة التى تميل طياتها إلى البياض بجمعها ولمها . ثم اجتمع بالقرب من الباب وهم عرايا كل من العبد العجوز الذى يحمل سلة السمك على كتفه والإماء اللائى يحملن السلال المليئة بالكتان المبلول فوق رءوسهن والعبدين بشبكتهما المطوية والعبد الذى يحمل المجاديف على كتفه والغلام الذى يحمل القلع على ذراعه. وسمع الرجل الذى سبق أن مات أزيز لغوهم الخفيض . وعندما هبت نسمة ريح باردة بدأوا يدلفون داخل الباب .

كانت الحياة حياة اليوم العادى التافه وحياة التافهين من الناس.

وقـال الرجل الذى سـبق أن مـات لنفسـه : «مـادمتا لا نحـيط الحياة العـادية بحياة اليوم الأعظم ومـادمنا لا نضعـها فى دائرة الحياة الأعظم فإن كل شـىء سوف ينتهى بكارثة ».

حتى قمم التـلال كـانت فى الظل . السـمـاء وحـدها هـى التى تلألأت إلـى فـوق . وكـان البحر كـالظل الهـائل فى لون الحليب . ووقف الرجل الذى سبق أن مات وقفة جامدة بعض الشىء . ودخل الخـمـيلة . لم يكن هنـاك أحـد فى المعبـد . مضى إلى جـحـره فى الصـخرة . وهنا كـان العـبيد قد قـاموا بنقل العـشب الشيطانى القـديم المسـتـخدم كـفـراش للمـواشى إلى الخـارج ويكنس أرضـيـة المعبد الصـخرية . وكانوا يفرشـون الرياحين بذوق جميل ثم بعدها الأعشاب الشيطانيـة الأكثر خشونة ثم يضـعون أعلى ذلك أطراف الأعـشـاب الشـيطانيـة كـفـراش . وفـوق كل هـذا وضـعـوا جلد ثور أبيض مـدبوغا .وكانت العذارى قـد وضعن أغطية صوفية مطوية على رأس المـغـارة . واصطف فى نظام وترتيب دقـيق اناء الخـمـر وإناء الزيت وفنجـان من الفـخـار وسلة تحـتـوى على الخـبـز والملح والجبن والتين المجفف والبيض . وكان هناك منقد نـار صـغير فيه فحم خـشـبى . وفجـأة امـتلأت المغارة بالأشيـاء وتحولت إلى مكان يصلح للسكنى.

وقفت كاهنة إيزيس فى الفجوة القريبة من الينبوع الصغير .

كان المكان يسمح بدخول عبد واحد فى المرة الواحدة . وانتظرت الفتيات الإماء عند مدخل المكان الضيق . وعندما ظهر الرجل الذى سبق أن مات أمرت الكاهنة الفتيات بالانصراف . واستمر العبيد الذكور فى ترتيب الفراش وهم يتلكأون فى إنهاء عملهم بقدر ما يستطيعون . ولكن كاهنة إيزيس أمرتهم بالانصراف أيضاً . وجاء الرجل الذى سبق أن مات ليلقى نظرة على بيته .

سألته المرأة : «هل يروق لك؟»

أجاب الرجل : «يروقنى كثيرا . ولكن السيدة والدتك، ومن يقوم، بلا شك على خدمتها كانوا يراقبون العبيد وهم يحضرون الأشياء والحاجيات .. ألن يعترضوا على ما تفعلين؟»

«إنى أملك جزءا خاصا بى ! أوليس من حقى أن أمنح مما أملك؟ من الذى سيعارضنى ويعارض الآلهة؟» . قالت هذا بقدر من الغضب الناعم المشوب بالضيق، الأمر الذى ينم عن أن أمها سوف تعترض عليها وأن روح اليوم العادى والتافه سوف تحارب ضد روح اليوم الأعظم . وفكر : «لماذا تخلت كاهنة ايزيس عن نصيبها فى الحياة اليومية العادية ؟ كان عليها الاحتفاظ بممتلكاتها فى شراسة».

قـالت : «ألا تـأكل أو تشـرب؟ هناك بيض دافـىء على الرمـاد . وسـوف أصـعـد إلى الدار لتنـــاول الطعـــام . ولكنـــى ســوف أهبط إلى المعبـــد فى الـهــزيع الثـانى من الليل . آه هل ستجىء أيضـاً إلى ايزيس؟» ونظـرت إليه وارتســـم عليـهـا وهـــج غـريب بسبب اتسـاع حدقتيهـا . كان ذلك حلمـها . وكـان ذلك أعظم من نفسها . لم يكن بمقدوره الآن أن يتحمـــل أن يعارضـها أو يـؤذى مـشـاعـرهـا فى أقل شـىء . فـقـــد كـانت فى ذروة وهـــج سـرهـا الأنثوى .

قال : «هل انتظر عند المعبد؟»

«آه . انتظر فى الهزيع الثانى من الليل وسوف أحضر إليك».

سمع همهمة الابتهال فى صوتها فاهتزت كل خلجاته.

نظرت إليه المرأة فزعة . وقالت :

«إنها لن تعارضنى !» .

وهكذا أدرك أن الأم ســـوف تعـــارض ابنتـــهـا لأن الابنة تركت ممتلكاتهـا فى يدى أمــهـا التى لن تتنازل عن قـوتهـا وسلطانها.

ولكنها انصرفت . ورقد الرجل الذى سبق أن مات مستندا إلى المخدة وأكل البيض من فوق الرماد وغمس خبزه فى الزيت وأكله

لأن جسده كان جافاً . ومزج الخمر بالماء وشربها . ثم رقد ساكنا بينما المصباح صنع برعما صغيرا من الضوء .

كان مستغرقا فى أحاسيس جديدة وأسيرا لها . وبدت كاهنة ايزيس جميلة فى عينيه . ولم يكن جمالها فى شكلها بقدر ما كان فى وهجها الأنثوى المدهش . وغمرتها الشموس تلو الشموس فى النار الغامضة ... نار المرأة العفية الغامضة .. كان ملمسها مثل ملمس الشمس وكانت أفضل الأشياء جميعها .

رغبتها الرقيقة فيه مثل سطوع الشمس الذى يجمع بين النعومة والسكون .

قال لنفسه وهو يمد أطرافه : «انها مثل وهج الشمس الغامرة . إننى لم أمد أطرافى قبل ذلك أبداً فى سطوع مثل هذه الشمس الماثلة فى رغبتها فىّ ، إن أعظم الآلهة هى التى منحتنى هذا.»

وفى الوقت نفسه لم يبارحه الخوف من العالم الخارجى . قال لنفسه :

«إذا استطاعوا فسوف يجهزون علينا . ولكن هناك قانونا للشمس يوفر لنا الحماية».

وقال لنفسه مرة أخرى : «لقد نهضت عاريا وموصوما . ولكنى إذا كنت عاريا مافيه الكفاية من أجل هذا الالتصاق

فـــإن مـوتى لن يضـيع سـدى . لقـد كنت قـبل ذلك أرسف فى الأغلال».

نهض وخرج ، وكانت لسعة البرد شديدة فى الليل الذى تلألأت فيه النجوم والذى تحلى بروعة شتوية عظيمة . وقال مخاطباً الليل:

«هناك مـصـائر وأقدار للروعة بعد أن كـتبت علينا التفـاهة والوضاعة والألم .»

وهكذا مضت فى صمت إلى المعبد . وانتظرت فى الظلام مقابل الحائط الداخلى شاخصة بعينيها إلى الظلام الرمادى والنجوم وحواف الأشجار . وقال مرة أخرى لنفسه :

«هناك للروعة أقدار ومصائر . وهناك قوة أعظم.»

ورأى الضوء الأخير فى مصباحها الملفوف بالحرائر يتراقص آتيا بانقطاع، ولكن بسرعة خلال الأشجار . كانت بمفردها . وبالقرب منها سقط النور بنعومة على طرف وشاحها وارتعد بخوف وفرح قائلاً لنفسه : «إننى أكاد أخاف من هذه اللمسة أكثر من خوفى من الموت . لأننى أشعر وأنا أتعرض لها بقدر أكبر من العرى.»

قال لها برقة فى الظلام : «انى هنا ياكاهنة ايزيس».

وأيضاً صرخت فى خوف . ولكن بانتشاء لأنها استسلمت لحلمها. «آه».

وفتحت مزلاج باب المحراب وتبعها ثم أوصدت مزلاج الباب مرة أخرى . كان الهواء بالداخل دافئا ومكتوما ومعطرا . ووقف الرجل الذى سبق أن مات بالقرب من الباب المغلق وراقب المرأة . جاءت فى بداية الأمر إلى الإلهة . ووقف تمثال الإلهة فى ضوء خافت يتدفق ويندفع إلى الأمام وهو يبعث على قليل من الخوف مثل حضرة امرأة عظيمة تحث وتحرض.

ولم تنظر الكاهنة إليه وخلعت وشاحها البرتقالى ووضعته على المضجع الواطىء . كانت فى الضوء الخافت عارية الذراعين فى ردائها الأبيض المربوط بالحزام . ولكنها كانت لاتزال تختبىء بعيداً عنه . ووقف فى الظل وراقبها وهى تنفخ برقة فى منقد النار وتنثر البخور عليه لتصعد فى الهواء سحابات واهنة من الأريج الحلو . والتفتت إلى التمثال وهى تقترب منه بطريقة من يمارس طقسا وهى تتمايل برقة إلى الامام وتهتز مثل قارب مربوط فى مرساه نحو الإلهة .

راقب المرأة الغريبة المستغرقة فى أفكارها ، وقال لنفسه :

«يجب علىّ أن أتركها وحدها فى انتشائها وأسرارها الانثوية». ثم مالت فى إيقاعها الغريب المهتز إلى الامام قدام الإلهة . ثم

أخذت تهمهم باللغة اليونانية التى لم يتمكن من فهمها . وبينما هى تهمهم أخذ اهتزازها يقل بنعومة مثل قارب فى بحر بدأ السكون يسوده . وأثناء مراقبته رأى روحها فى انفرادها كما رأى اختلافها الأنثوى . قال لنفسه :

«كم هى مختلفة عنى . كم هى مختلفة بشكل غريب . لقد أخذت تصير خالية من الخوف وعارية عنه . كم هى نابضة بالحياة على نحو حساس ورقيق . ولكم تختلف حياتها ! وكم هى فاتنة بما لديها من شجاعة الموت ! كم هى جميلة مثل قلب وردة وكأنها قلب لهب. إنها تعرض نفسها تماماً للاختراق . وكم هو فظيع أن يخيب المرء أملها أو أن يدوس لها على طرف!»

التفتت إليه ووجهها يستمد توهجه من الإلهة.

سألت بسذاجة : «أنت أوزوريس . أليس كذلك؟».

قال : «أنا هو إذا شئت».

«هل تسمح لإيزيس باكتشافك؟ وهل تخلع ثيابك؟»

ونظر إلى المرأة فاقدا قدرته على التنفس . وبدأت جراحه ، وخاصة الجرح المميت فى بطنه ، تؤلمه من جديد.

قال : «لقد آلمتنى كثيرا . يجب عليك أن تغفرى لى إذا كنت لا أزال هيابا محجما.»

ولكنه خلع عباءته وثيابه واتجه عريانا نحو التمثال وصدره يتهدج نتيجة الرعب المفاجيء الذى سببه له الألم المروع الكاسح ، وذكرى هذا الألم المروع الكاسح والحزن الذى لا حد لمرارته.

قال كمن يعتذر عن نفسه لافتا وجهه إليها لحظة: «انهم طعنونى حتى الموت».

ورأت فيه شبح الموت أثناء وقوفه أمامها نحيلا وعاريا . وفجأة أصابها الفزع وخامرها احساس من يتعرض للنهب والسرقة. وشعرت فى انتصار بطيف جناح الموت الرمادى المروع . قالت للتمثال باللغة الدراجة : «آه ياإلهتى . سوف تغمرنى سعادة العيش إذا قمت بإعطائى إشارة البدء من جديد».

وشعر باليأس مرة أخرى من أجلها، وقد واجهته مطالب الحياة. وهو لايزال يشعر بوطأة موته ثقيلة عليه.

قالت له المرأة فى رقة : «دعنى اكرسك بالزيت. ودعنى أمسح الندوب بك ! ارنى إياها وسوف أقوم بتكريسها بالزيت!»

ونسى أنه عريان بسبب استعادته للألم القديم . ثم دعكت يده فتداعت فى ذهنه الذكريات من جديد . تذكر المسامير ... مكان الطعنات .. القسوة ... القسوة الظالمة التى لحقت به وهو لم يقدم

غير الحب والحنان .. وانتابه ألم الظلم والقسوة من جديد مثلما شعر بهما ساعة موته . ولكنها دعكت كف يده وهى تهمهم : «الذى تمزق يصبح جسدا جديدا . والذى كان جرحا يمتلىء بحياة جديدة . وهذا الندب هو عين البنفسج».

لم يكن بوسعه غير الابتسام لها فى استغراقها الساذج فى عملها ككاهنة كان ذلك حلم حياتها . وكان وحده موضوع أحلامها . لن تعرف أو تفهم أبداً ماهيته . وعلى وجه الخصوص لم تكن لتعرف أبداً الموت الذى انقضى وولى فيه قبل ذلك . ولكن ما أهمية ذلك؟ فقد كانت مختلفة ، وكانت امرأة كما كانت حياتها وموتها يختلفان عن حياته وموته . فقط كانت حانية عليه وطيبة فى تعاملها معه .

وعندما دعكت قدميه بالزيت وبالشفاء الرقيق للغاية لم يكن باستطاعته أن يمنع نفسه من أن يقول لها :

«فى يوم من الأيام غسلت امرأة قدمى بالدموع ومسحتهما بشعرها ، وسكبت على طيبا غالى الثمن ».

ورفعت كاهنة ايزيس عينيها من عملها الجاد وتطلعت إليه مقاطعة مرة أخرى : «وهل كانت قدماك مصابتين بأى ضرر؟»

« لا . لا . حدث هذا عندما كانت قدماى سليمتين».

«وهل أحببتها؟»

أجاب : «لقد مات الحب فى قلبها . إنها أرادت فقط أن تؤدى خدمة . كانت هذه المرأة عاهرة» .

سألته : «وهل سمحت لها أن تخدمك؟»

«نعم ».

«هل سمحت لها أن تخدمك وقد مات حبها وأصبح جثة هامدة؟»

«نعم».

وفجأة خطرت على باله هذه الفكرة : «لقد طلبت منهن جميعاً أن يقمن على خدمتى بعد أن تحول حبهن إلى جثة هامدة . وفى النهاية قدمت إليهن فقط جثة حبى الهامدة ... هذا هو جسدى فخذى ، وهذه جثتى فكلى »

واخترمه شعور نابض بالخجل وفكر : «إننى فى نهاية الأمر أردت منهن أن يحببن بأجسام ميتة . ولو انى طبعت قبلة على يهوذا بحب حى فربما كان لا يقبلنى قبلة الموت على الاطلاق . من الجائز أنه أحبنى فى الجسد فى حين أردت منه أن يحبنى بدون جسد وبجثة الحب.»

وفجأة تراءت له حقيقة الحب الدافىء الناعم القائم على اللمس والمفعم بالمباهج .

قال لنفسه : «وأخبرتهم طوبى للذين ينصبون وينوحون . ياللأسى! إذا كنت نعيت حتى هذه المرأة الموجودة هنا وأنا الآن فى الموت فينبغى علىّ أن أبقى ميتا . غير أنى أرغب فى الحياة إلى أقصى حد . إن لمستها أصبحت فى نظرى الآن تفوق كل كلماتى . فأنا أريد أن أعيش.»

قالت بصوت ناعم وهى تدفعه تجاه إيزيس : «إذن اذهب إلى هذه الإلهة!» وبينما وقف مشدوها وعريانا كشىء لم يولد بعد سمع صوت المرأة تتمتم للإلهة ، تتمتم بمناشدة شاكية . انحنت الآن ناظرة إلى أثر الجرح فى الجسد الطرى فى تجويف جنبه . وبدا الندب عميقا (مثل عين احمرت من كثرة البكاء الذى لا يعرف الانقطاع قط) فى التجويف الناعم فوق العجز . فمن هنا سال دمه وتركته بذرته الجوهرية . كانت المرأة ترتعد برقة وتتمم باللغة اليونانية . وفى يأسه المتكرر الناجم عن موته وفى حيرته التى تفيض بالألم الناجمة عن سعيه إلى إرغام الحياة شعر بجروحه تؤلمه بشدة وبالأماكن العميقة فى جسده تصرخ مرة أخرى وهى تقول : «لقد قتلونى وساعدتهم على قتلى. لقد قتلونى وساعدتهم بنفسى على الاجهاز علىّ».

والآن فى صمت وضعت المرأة، وفرائصها ترتعد ، الزيت فى يدها. ووضعت كفها على الجرح الموجود فى جنبه الأيمن، فانقبض

وانكمش من الألم . وانشغل باله بالجرح مرة أخرى مثلما حدث له آلاف المرات من قبل . ومن الألم المظلم الوحشى والذعر الذى أصاب وعيه ارتفعت صرخة واحدة تقول : «كيف يمكنها أن تنزع هذا الموت عنى؟ إنها لن تعرف أبداً! إنها لن تفهم أبداً! وليس فى تصورها أن تضارع هذا الموت».

وفى صمت قامت فى ايقاع منتظم ناعم بدعك جرحه بالزيت . وانصرفت الآن تماماً إلى عملها ككاهنة وهى تستجمع قوتها برقة ونعومة بينما تعالت حشايا الرجل الجوهرية فى صراخ مذعور . وبينما هى تستجمع قوتها بللتدريج وتضع حزاماً حوله ناحية الجرح المقابل إذا بالدفء يبدأ بالتدريج فى الحلول محل الرعب البارد . وشعر الرجل : «سوف يدب الدفء فى أطرافى مرة أخرى وسوف أصبح سليماً معافياً! سوف أكون دافئاً مثل الصباح وسوف أصبح رجلا . هذا لا يحتاج إلى فهم بل يحتاج إلى جدة وسوف يجلب التجديد لى».

وانصت إلى عويل الحزن الخافت الذى لا ينتهى النابع من جروحه كما لو كان آتيا إلى الأبد من تحت آفاق وعيه . ولكن العويل ازداد خفوتا أكثر فأكثر.

وفكر فى المرأة التى تجهد نفسها من جرائه : «إنها لا تعرف !

إنها لا تدرك الموت الذى أصابنى . ولكن لديها وعى آخر . إنها تجىء إلىّ من طرف الليل المقابل».

وبعد آن قامت بدعك كل الجزء الأسفل من جسمه وهى مشغولة بأداء عملها بجدية بطيئة تليق بها ككاهنة لدرجة أن صوت جراحه بدأ يخفت أكثر فأكثر .

وفجأة وضعت صدرها على الجرح فى جنبه الأيسر وأحاطته بذراعيها طاوية بذلك الجراح فى جنبه الأيمن وضمته اليها فى قوة الدفء النابض بالحياة مثل ثنايا نهر . واختفى النحيب تماماً . وحل صمت وظلام فى روحه ... صمت مظلم لا ينتهى هو الكمال والاكتمال.

وفى بطء شديد وفى الظلام الكامل الموجود فى رجولته الداخلية شعر بحركة ونأمة شىء قادم . إنه الفجر والشمس الجديدة . بدأت تسطع فيه شمس جديدة . انتظر بزوغها وهو لاهث يرتعد وقد ملأه أمل مذعور : «الآن لم أعد نفسى فقد تحولت إلى شىء جديد».

وعندما نهض شعر فى أنفاس خيبة الأمل الباردة بالحزام الذى طوقته به المرأة الحية وقد انزلق من جسده كما شعر بالدفء والوهج ينزلقان منه أيضاً وقد تركاه عاريا . وجرمزت منهوكة القوى تحت قدمى الإلهة وهى تخفى وجهها .

وانحنى ليضع يده برقة على كتفها الدافىء الوضىء وسرت صدمة الرغبة فى أرجائه . سرت صدمة تلو الأخرى لدرجة أنه تساءل إذا لم تكن هذه الصدمات نوعا آخر من الموت . ولكنه موت مفعم بالجلال .

والآن تركز كل وعيه فى المرأة المختبئة المجرمزة . وانحنى بجوارها وهو يربت عليها برقة ودون أى نظر وهو يتمتم بأشياء غير واضحة . وزال عنه الآن تماماً موته ورغبته العارمة فى التضحية . عرف فقط اكتمال المرأة المجرمزة هناك ... صخرة الحياة البيضاء الناعمة ... فكر : «على هذه الصخرة أقمت حياتى» ... صخرة المرأة الحية . المطوية أغوارها العميقة والتى يمكن اختراقها ! كانت المرأة تخفى وجهها . وكان هو فى انحنائه قويا وجديدا مثل انبلاج الفجر.

وجرمز نحوها وشعر بوهج رجولته وقوته يصعد فى روعة إلى حقويه.

قال : «لقد قمت من الأموات.»

بزغت شمس فى أعماق حقويه رائعة متوهجة ، ولا سبيل إلى كبحها ، ونفثت نارها فى اطرافه فلمع وجهه دون وعى منه .

وفك رباط ردائه المصنوع من الكتان تاركا إياه ينزلق من فوق جسده حتى شاهد الوهج الأبيض فى صدرها الذى يشبه الذهب

الأبيض . ولمس ثدييها وشعر بأن حياته قد ذابت . قال : «ياأبتاه لماذا أخفيت هذا عنى» .

وتحسسها بحدة اندهاشه وقد مزقته شفافية الرغبة العجيبة المدهشة.

قال : «إن هذا ليتجاوز حدود الصلاة» . شعر بالدفء العميق المطوى .. الدفء النابض بالحياة والذى يمكن اختراقه .. دفء المرأة ... قلب الوردة . وأنا أسكن الوردة الدافئة المتداخلة . وفرحتى تكمن فى إيقاعها!» .

وتطلعت إليه فجأة .. بدا وجهها مثل الضوء المرفوع الحزين الرقيق كما بدت عيناها مثل زهور كثيرة مبللة . وضمها إلى صدره بعاطفة حنان متأججة تختلط بالرغبة الحارقة . وكان فكره الأخير: «لقد حانت ساعتى وأخذت على غرة».

ثم عرفها وأصبح الاثنان شيئاً واحداً .

وبعد ذلك لمست بأطراف أصابعها فى اندهاش معتم آثار الجروح العظيمة فى جنبيه وسألته : وجروحك لم تعد تؤلمك؟»

قال : إنها شموس تسطع من وهج شعلتك . إنها كفارتى مغك» .

وعندما غادرا المعبد كان الجو باردا قبل انبلاج الفجر . وحين أغلق الباب نظر مرة أخرى إلى الإلهة وقال : «لغمرى إن ايزيس إلهة حانية تفيض بالرقة والعذوبة . إن ذكور الإلهة العظيمة تتميز بدفء القلب ولديها إلهات إناث رقيقات».

ولفت المرأة نفسها فى وشاحها وعادت إلى دارها فى صمت وهى لا تبصر من حولها شيئاً شاردة اللب مثل زهرة لوتس تنغلق أوراقها مرة أخرى وقلبها الذهبى يفيض بالحياة المتجددة . لم تر شيئاً لأن أوراقها كانت بمثابة غمد لها . فقط قالت : «ان أحشائى ملأى بأوزوريس . إننى ملأى بأوزوريس الذى قام من الأموات!»

ولكن الرجل نظر إلى النجوم التى تفيض بالحياة . قبل انبلاج الفجر وهى تمطر على البحر من تحتها كما نظر إلى خضرة النجم المعروف بالنجم الشعرى ترنو إلى حافة البحر كم هى خضرة لدنة وطرية ، ولكم هى ملأى بالثنايا والمنحنيات مثل وردة غير منظورة تتفتح أوراقها السمراء كى تبين المكان الذى يلمس فيه الندى سمرتها ! كم هى مكتملة فى عظمة تفوق عظمة الآلهة طرا. ويالروعتها وهى تميل من حولى وأنا جزء منها ... من وردة الفضاء العظيمة . أنا مثل الحبة فى عطرها كما أن المرأة تشبه الحبة فى

جمالها . الآن أصبح زهرة واحدة تتكون من ظلمات كثيرة مورقة ويانعة .

ونام فى مغارته بينما طلع الفجر وهو فى سكون اللمسة واكتمالها المطلق . وبعد الفجر هبت الريح وأتت بعاصفة يصحبها المطر البارد .

وهذا مكث فى المغارة فى سلام وابتهاج من عرف اللمس وقد غمرته الفرحة بسماع البحر . وتساقط المطر على الأرض . ورأى زهرة نرجس تنحنى مبللة فى مثل بياض الذهب الأبيض . وظلت فى بللها . إن البحر الداكن والمطر الداكن وزهرة النرجس المبللة والمرأة التى انتظرها وإيزيس التى لا يراها أحد والشمس غير المرئية .. جميعها توحدت وأصبح بعضها يلمس البعض الآخر.

وانتظر عند المعبد مجىء المرأة التى جاءت أثناء هطول المطر . وقالت له :

«دعنى أجلس برهة مع إيزيس ثم تعال إلىّ . فهلا أتيت إلى فى الهزيع الثانى من الليل؟»

ثم عاد إلى المغارة وجلس فى صمت وفى بهجة من عرف اللمس، وانتظر المرأة التى ستحضر إليه بمجىء الليل وتكمل اللمس ، مرة أخرى . وعندما حل الليل جاءت المرأة ... جاءت

جذلة لأنها كانت تتحرق شوقاً سعيا إلى اللمس .. من أجل أن تقترب منه وتلمسه .

ثم جاءت الأيام وجاءت الليالي . وتكرر مجيء الأيام وتحقق اللمس واكتمل . قال :

«لن استفسر منها عن أي شيء ولا حتى عن اسمها لأن ذلك يفرقني عنها ».

وقالت هي لنفسها : «إنه أوزوريس وكفى .»

وهبت رائحة ازدهار البرقوق من الأشجار . وكان موسم النرجس قد ولى وانقضى . وأضاء نبات الأنيمونيا الأرض قبل أن يختفي وانتشر في الهواء أريج حقول البقول . لقد تغير كل شيء. وغيرت زهرة الكون أوراقها ، واستدارت كي تنظر في الاتجاه الآخر. واكتمل الربيع . وتحقق اللمس . واكتمل الرجل من المرأة واكتملت المرأة من الرجل . وأصبح الرحيل وشيك الحدوث.

وذات يوم قابلها تحت الأشجار عندما كانت شمس الصباح ساخنة ، وانتشرت رائحة أشجار الصنوبر العطرة . وانتثرت على الجبال ثمار الكمثرى. اتجهت نحوه ببطء . وعرف أن تغيرا طرأ عليها من تلكئها الحاني ومن ابتعادها الرقيق عنه .

سألها : «هل أنت حبلى؟»

قالت : «لماذا؟»

«أنت مثل شجرة يكسو الازدهار أوراقها الخضراء الممتلئة بالعصارة. ثم إنك أخذت فى الابتعاد عنى؟»

قالت : «صحيح أنى حبلى منك وهذا شىء طيب؟»

قال : «وكيف لا يكون طيباً؟ ولهذا توقف العندليب عن النداء والغناء من قاع الوادى . ولكن أين تلدين الطفل ؟ فأنا لا أملك أى شىء غير الحياة.»

قالت : «سوف تمكث هنا».

«ولكن ماذا ستقول السيدة والدتك؟»

وعبرت الظلال حاجبها . ولم تحر جوابا.

قال : «ماذا سيحدث عندما تعرف؟»

«لقد بدأت تعرف».

«وهل ستلحق بك الأذى»

«كلا لن تؤذينى فأنا أملك كل ما لدى . وسوف يملأ أوزوريس بطنى، ولكن هل أنت تراقب عبيدها؟»

نظرت إليه وعكر القلق صفو أمومتها.

قال : «لا تجعلى قلبى يضطرب فقد مت مرة» .

وعرف أن الوقت قد حان، مرة أخرى، كى يشد رحاله . سوف يذهب بمفرده حاملا معه قدره . ورغم هذا فلن يكون بمفرده لأن اللمسة سوف تبقى معه حتى بعد أن ترك لمسته عليها . وسوف تذهب شموس غير منظورة معه.

ومع هذا فقد تعين عليه أن يذهب . ولكن هاهنا على الخليج استأنفت حياة الغيرة والتملك التافهة قوتها مرة ثانية ، بينما أرخت الخصوبة المتأججة من عنفوان الغيرة والتملك . وباسم التملك سوف تسعى الأرملة وعبيدها إلى الانتقام منه بسبب الخبز الذى أكله ، واللمسة الحية التى أتى بها ، والمرأة التى تمتع بها . ولكنه قال : «لا يمكن لهذا أن يحدث لى مرتين ، إنهم لن يدنسوا الآن اللمسة الكائنة فى . وسوف أقاوم كل ما تتفتق عنه أذهانهم بكل ما يتفتق عنه ذهنى».

وهكذا راقبهم وعرف مؤامراتهم وابتعد عن المغارة الصغيرة ووجد ملجأ آخر كان عبارة عن خور صغير من الرمل بجوار البحر. كان ملجؤه جافاً وخافيا عن الأنظار تحت الصخور .

قال للمرأة : «يجب الآن أن أذهب فى الحال . فسوف تأتينى المتاعب من العبيد . ولكنى رجل وأبواب العالم مفتوحة الآن أمامى . والذى يربطنا شىء طيب عميق وراسخ . عليك السلام .

وعندما يرتفع صوت العندليب مناديا من قاع الوادى سوف آتى مرة أخرى فى مثل يقين الربيع».

قالت : «آه لا تذهب! ابق معى فوق نصف الجزيرة وسوف أشيد منزلا لك ولى تحت أشجار الصنوبر بجوار المعبد حيث يمكننا أن نعيش منفصلين ».

ومع هذا فإنها أدركت أنه سوف ينصرف ، بل انها أرادت أن تحيطها برودة هوائها الخاص بها كما أرادت أن تتخفف من القلق.

قال : «إذا مكثت فسوف يخوننى لدى الرومان ويقدموننى إلى المحاكمة ولن أقبل أبدا أن يخوننى أحد مرة ثانية . ولهذا، عيشى فى سلام مع طفلك النامى حين أنصرف . وسوف آتى مرة أخرى . فكل ما بيننا طيب سواء كنا قريبين أو بعيدين . إن الشموس تأتى فى مواسمها . وسوف أعود مرة أخرى».

قالت : «انتظر بعض الوقت قبل أن تذهب . لقد كلفت عبدا بمراقبة عنق شبه الجزيرة . فلا تذهب قبل أن تتأكد من عدم تعرضك للأذى.»

ولكنه سمع ضربات المجاديف الناعمة بينما كان راقدا فى خميلته الصغيرة فى ليلة هادئة ساكنة وصوت ارتطام القارب على

الصخرة . وزجف إلى الخارج لينصت فسمع المشرف الرومانى يقول:

«جدف برقة إلى وكر الماعز وسوف يقوم ليسيوس بإلقاء الشبكة على المجرم أثناء نومه وسوف يحضره إلى القاضى . وسوف نخفى هذا الأمر عن كاهنة إيزيس».

وهبت نفخة ريح فى أجساد العبيد العارية والمدهونة بالزيت وهم يزحفون إلى أعلى تجاه الرجل الذى سبق أن مات . ثم شم العطر الخفيف المنبعث من الرجل الرومانى . وزحف ليقترب أكثر البحر . وجلس الرجل الموجود فى القارب وهو لا يحرك ساكنا ممسكا بالمجاديف لأن السكون كان يسود البحر تماما . وتعرف الرجل الذى سبق أن مات عليه . وقال بصوت واضح من خلال الشق العميق الموجود فى الصخرة :

«ألست ذلك العبد الذى واقع الفتاة العذراء تحت أبصار إيزيس؟ ألست أنت هذا الشاب؟ تكلم!»

وانتصب الشاب واقفا مفزوعاً فى القارب . وتسببت حركته فى ارتطام القارب بالصخرة . وقفز العبد خارج القارب فى خوف عظيم وخف هاربا بين الصخور . وبسرعة أمسك الرجل الذى سبق أن مات بالقارب ودخل فيه ودفعه كى يتحرك على سطح الماء. وكانت المجاديف لا تزال دافئة بدفء أيادى العبيد غير السار .

ولكن الرجل دفع القارب ببطء ليبتعد به عن الشاطيء ويصل إلى مجرى التيار حتى يحمله فى صمت . وقبع الساحل المرتفع فى ظلام دامس قبالة الليل الذى تضيئه النجوم. ولم تأت من شبه الجزيرة أية ومضة ضوء . وامتنعت الكاهنة عن المجيء فى الليل . وجدف الرجل الذى سبق أن مات ببطء مع التيار وهو يقول لنفسه ضاحكا : «لقد غرست بذرة حياتي وبعثى ووضعت لمستى إلى الأبد فى أحلى امرأة فى هذا الزمان . وإنى أحمل عطرها فى جسدى مثل أريج الورود . إنها أثيرة إلى قلبى وتحتل المركز فى كيانى. ولكن الحية الذهبية العائمة تلتف حول نفسها مرة أخرى لتنام عند جذع شجرتى» .

«لذا فليحملنى القارب . وسوف يكون الغد يوما آخر».

لورانس
سيرة حياته

د. هـ . لورانس

سيرة حياته

كان الأديب الانجليزى العبقرى د. هـ لورانس متعدد المواهب يؤلف القصة والرواية والقصيدة الشعرية فضلا عن أنه خلف وراءه مجموعة كبيرة من الرسوم واللوحات ، وليس أدل على غزارة انتاجه من هذه القائمة بأعماله الأدبية مرتبة ترتيبا زمنيا :

«الطاووس الأبيض » (١٩١١) ، «المعتدى» (١٩١٣) «قصائد حب وأشياء أخرى» (١٩١٣) ، «أبناء وعشاق» (١٩١٣) . «ترمل مسز هولرويد» (١٩١٤) ، «الضابط البروسى» (١٩١٤) ، «قوس قزح» (١٩١٥) ، «الشفق فى ايطاليا» (١٩١٦) ، «أمورس» (١٩١٦) ، «انظر لقد انتهينا» (١٩١٧) ، «قصائد جديدة» (١٩١٨) ، «خليج» (١٩١٩) ، «المس واذهب» (١٩٢٠) ، «نساء عاشقات» (١٩٢٠) ، «الفتاة الضائعة» (١٩٢٠) ، «حركات فى التاريخ الأوربى » (١٩٢١) ، «التحليل النفسى واللاوعى » (١٩٢١) ، «السلحفاة» (١٩٢١) ، «البحر وساردينيا» (١٩٢١) ، «عصا أريون» (١٩٢٢) ، «فانتازيا اللاشعور» (١٩٢٢) ، «انجلترا بلدى وقصص أخرى » (١٩٢٢) ، «طائر الست والثعلب ودمية الكابتن» (١٩٢٣) ، «دراسات فى الأدب الأمريكى الكلاسيكى» (١٩٢٣) ، «الكانجارو» (١٩٢٣) ، «طيور ووحوش وازهار » (١٩٢٣) ، «الصبى فى

الشجيرة» (١٩٢٤) «سانت مور والأميرة» (١٩٢٥) ، «أفكار عن موت الدندل ومقالات أخرى» (١٩٢٥)، «الافعى ذات الريش » (١٩٢٦) ، «دافيد» (١٩٢٦) ، «الشمس » (١٩٢٦) ، «أشباح فرحة» (١٩٢٦) «الصباح فى المكسيك » (١٩٢٧) ، «سقف رودون» ، «قصائد د. هـ . لورانس المجموعة » (١٩٢٨) ، «النساء اللائى ابتعدن وقصص أخرى» (١٩٢٨) ، «عشيق الليدى تشاترلى» ، «لوحات د. هـ . لورانس» (١٩٢٩) ، «زهرة البنفسج» (١٩٢٩) ، «مناوشتى مع جولى روجر» (١٩٢٩) ، «الأدب المكشوف والبذاءة» (١٩٢٩) ، «الديك الهارب أو الرجل الذى مات» (١٩٢٩) ، «نبات النيتل» (١٩٣٠) ، «العذراء والغجرى» (١٩٣٠) ، «الحب فى أكوام القش» (١٩٣٠) ، «انتصار الآلة» (١٩٣٠) ، «بشأن الليدي تشاترلى» (١٩٣٠) ، «الرؤيا» (١٩٣١) ، «أماكن أوترسكانية» (١٩٣٢) ، «قصائد أخيرة» (١٩٣٢) ، «سفينة الموت وقصائد أخرى» (١٩٣٣) ، «السيدة المحبوبة» (١٩٣٣) ، و«مسرحيات د هـ لورانس » (١٩٣٣) ، «ليلة جمعة عامل فى منجم فحم» ، «العاشق الحديث » (١٩٣٤) ، «حكايات د. هـ لورانس» (١٩٣٤) ، «العتقاء : أوراق د هـ لورانس بعد وفاته » (١٩٣٦) ، «المعنى الرمزى : دراسات لم يسبق جمعها فى الأدب الكلاسيكى الجديد » (١٩٦٢) ، «خطابات د هـ لورانس : المجموعة » (١٩٦٢)

★★★

ولد د. هـ. لورانس – واسمه بالكامل دافيد هربرت ريتشارد لورانس – من أبوين تعيسين هما آرثر جون لورانس وزوجته ليديا لورانس فى يوم ١١ سبتمبر عام ١٨٨٥ فى قرية إيستوود بمنطقة نوتنجهام شير المشهورة

بمناجم الفحم ، وهى قرية وطأها التضيع بأقدامه - شأنها فى ذلك شأن الكثير من قرى المنطقة - فأحال جمالها مسخا ونضارتها قبحا ولوث نقاءها الدخان الكثيف الأسود المتصاعد من المناجم والمصانع المجاورة، ولكن الطبيعة فى ايستوود على أية حال لم تكن حتى أيام لورانس قد فقدت كل بهائها ، إذ أنها كانت حينذاك مزيجا غريبا من القبح والجمال والمسخ والنضارة ، وذلك لأن التضيع البغيض لم يكن بعد قد زحف إلى كل مكان ليدنس كل ماهو نقى ويشوه كل ماهو جميل ، ويعبر لورانس عن مقته لوجه التضيع الشائه الذى بدأ يطل على ربوع الريف الانجليزى فى احدى مقالاته التى تحمل عنوان «نوتنجهام ومناجم الريف» فيقول :

«إن الجريمة البشعة التى ارتكبتها الطبقات الموسرة ورجال الصناعة فى العصر الفيكتورى المزدهر هى أنها جعلت العمال يرسفون فى اغلال القبح القبح القبح جعلتهم يرسفون فى حياة دنيئة ، وبيئة قبيحة لاشكل لها ، وفى مثل عليا قبيحة ، ودين قبيح ، وأمل قبيح ، وحب قبيح ، وثياب قبيحة ، وأثاث قبيح ، ومنازل قبيحة ، وعلاقات قبيحة بين العمال وأصحاب الأعمال . إن روح الإنسان تحتاج إلى الجمال الفعلى أكثر من احتياجها للخبز الذى تقتات به » .

كان لورانس أصغر ابن فى عائلة تتكون فيما عداه من ابنين أكبرهما جورج ، يليه وليم ارنست ؛ ومن ابنتين كبراهما تدعى اميلى أونا وصغراهما تسمى ليتيس ايدا .. وكان هزيلا ضامرا عند مولده بعكس أخويه الذكرين اللذين توفرت لهما كل أسباب الصحة والعافية . ويقول وليم هوبكن - أحد اصدقاء العائلة - إن لورانس بدا فى شهره الأول مثل

أرنب مسلوخ ، وإنه عندما التقى ذات يوم بمسز لورانس فى الطريق العام فى قرية ايستوود - وهى تدفع بيديها عربة الأطفال التى تحمل ابنها الهزيل - هزت الأم رأسها فى أسى وقالت إنها لاتتوقع لطفلها أن يظل على قيد الحياة أكثر من ثلاثة أشهر

وعاش والدا لورانس الشقيان جل حياتهما فى عراك متصل بلغ بهما مبلغ القطيعة والنفور . كان أبوه - وهو عامل فى منجم للفحم فى ايستوود - قبل زواجه جسورا مرحا يهوى الرقص ويجيده ، ويتحدث عن عمله المضنى الشاق فى ظلام المنجم تحت باطن الأرض بأسلوب يضفى على هذا العمل نوعا من الرومانسية المحببة إلى النفس ورأت مسز ليديا فيه طرازا فريدا من الرجال لم يسبق أن التقته قبل ذلك فأغراها ذلك بزواج ظلت تندم عليه طيلة حياتها . كانت هذه المرأة - وهى ابنة مهندس متدين ومتزمت أخنى عليه الدهر - تتمتع بقدر من الثقافة والمعرفة واشتغلت بالتدريس قبل زواجها بعض الوقت ، ويقال إنها كانت تقرض شيئا من الشعر . وعلى الرغم من غلظة البيئة التى عاشت فيها بين عمال المناجم وزوجاتهم فقد ظلت تتحدث بلغة المتعلمين الراقية التى تغاير اللغة الخشنة التى يستخدمها زوجها الجلف وجيرانها الأجلاف . ومن ثم يتضح أنها كانت بالرغم من فقرها تنتمى بالأصل والطبع معا إلى الطبقة البورجوازية ، فى حين ينتمى زوجها بالخلق والعمل إلى طبقة البروليتاريا ، ويذهب بعض النقاد إلى أن لورانس يصور فى روايته «أبناء وعشاق» (١٩١٣) الصراع المحتدم بين أبويه على أنه بالدرجة الأولى صراع طبقى بين البورجوازية والبروليتاريا .

وبالرغم من أنه يتخذ فى هذه الرواية ، من هذا الصراع ، موقفا محايدا فإن حيدته اختفت فيما بعد كما يتضح لنا من لومه اللاحق لأمه

كان لورانس نهبا موزعا بين العطف على أبيه والولاء لأمه ، ويمكننا أن نستبين التأرجح فى موقفه من أبويه إذا قارنا بين ما كتبه فى قصيدته «الرنجة الحمراء» وبين بعض الاعترافات التى أسر بها إلى نفر من اصدقائه ففى هذه القصيدة يعبر عن ازدرائه لأبيه واحتقاره له كما يصر فى الوقت نفسه على تبجيله لوالدته . يقول لورانس فى «الرنجة الحمراء» :

«لقد كان أبى عاملا ولكن روح أمى كانت تسمو على روحه » ، وإذا استعرضنا موقفه من أبيه كما صوره فى سيرة حياته الذاتية «أبناء وعشاق» فإنه يتضح لنا على الفور عطفه على أمه ومقته لأبيه ، وتؤكد لنا أخته ايدا أنه استمد مادة «أبناء وعشاق» الروائية من واقع حياة أسرته وان قصة زواج أمها من أبيها عامل المنجم - واسمه فى الرواية والترموريل - ليست سوى تسجيل صادق للواقع ، كما أن الإحباط الذى منيت به مسز موريل فى هذه الرواية يطابق الإحباط الذى منيت به مسز لورانس فى الحياة . فقد أحبت مسز لورانس فى صباها شابا متدينا ومتعلما كانت تتطلع إلى الزواج منه ، ولكنه انصرف عنها ليتزوج امرأة تكبره سنا طمعا فى مالها ، ولم يمض وقت طويل على زواج مسز ليديا لورانس من عامل المنجم آرثر چون لورانس حتى بدأ الخلاف الشديد يدب بينهما وأصبحت حياتها معه جحيما لا يطاق ، فقد كانت الزوجة كما يصفها لورانس فى روايته مثل أبيها فى شدة تدينها وتزمتها البيوريتانى،

تمقت معاقرة الخمور ، طموحة تقبل عن كره ماتعيش فيه من املاق ، ونشب الخلاف بين الزوجين عندما اكتشفت الزوجة أن رجلها الذى وعدها بالكف عن الشراب يخفى جانبا من أجره الضئيل لينفقه فى الحانات مع أصدقائه من العمال ، ثم يعود إلى البيت ثملا مخمورا يغلظ فى معاملتها ويفحش لها فى القول ويجنح إلى استخدام العنف معها ، وكانت وسيلة الأم فى الانتقام من زوجها أن تسعى ما وسعها السعى إلى تنفير الأبناء من أبيهم وبث روح الكراهية فيهم حتى غدوا يمقتونه مقتا لامزيد عليه ، وكان مجرد وجوده فى البيت يلقى عليهم ظلالا كثيفة من الخوف والفزع والحزن والاكتئاب ، الأمر الذى أشعر الأب بالغربة المريرة فى عقر داره، وقد اعترفت لنا ايدا فيما بعد أن الأسرة انتهجت سياسة خاطئة عندما ابتعدت عن الأب ولم تظهر نحوه أدنى قدر من الحنو والعطف والاشفاق . وتروى لنا اتسساه بروستر - وهى صديقة لـ د. هـ لورانس كانت تعيش مع زوجها فى جزيرة سيلان - ان لورانس اعترف فى حضرتها وحضرة زوجها عندما قابلهما فى هذه الجزيرة عام ١٩٢٢ (أى بعد انقضاء عشرة أعوام على كتابة «أبناء وعشاق» ، أنه يشعر أنه تجنى على والده فى هذه الرواية ، الأمر الذى جعله يحس أنه يجدر به أن يعيد كتابتها من جديد ، فقد اتضح له بعد فوات الاوان ان العيب لم يكن فى أبيه الذى كان يحيا حياته بطريقة منطلقة تلقائية ويستغرق فيها بنهم ، بل فى أمه المتزمتة التى كانت تعتقد أنها تتحلى من الفضائل بما لا يتحلى به الآخرون فهى التى ضحت بهذا الرجل على مذبح تزمتها وهى المسئولة عن خنق تلقائيته وتلقائية الأبناء معا .

وفى صباه أحب لورانس فتاة تصغره بعام واحد تدعى «جيسى تشامبرز» التقى بها فى صيف عام ١٩٠١ فى مزرعة تملكها عائلتها على بعد نحو ميلين شمال ايستوود وتعرف لورانس بهذه الفتاة قبل التحاقه بالعمل ككاتب فى أحد مصانع نوتنجهام بزمن قصير . ودامت علاقته بها ما يقرب من اثنى عشرة عاما قدر لها أن تكون أعواما عنيفة ، ويصور لورانس علاقته المضطربة بهذه الفتاة فى روايته «أبناء وعشاق» حين يسمى نفسه بول موريل ويسمى الفتاة ميريام ليفرز بدلا من اسمها الحقيقى جيسى تشامبرز . وحدث أول لقاء بين جيسى تشامبرز ولورانس فى اجتماع من اجتماعات مدارس الأحد . ولولا التقاء والدتى الفتاة والفتى لما قيض لهما أن يؤلف الحب بين قلبيهما . ويرجع السبب فى توطد العلاقة بين الوالدتين أن أم لورانس أنست إلى أم جيسى التى كانت حديثة العهد بالمنطقة نسبيا فباتت تبثها لواعج نفسها وما تراكمت فيها من مرارة على مدى عشرين عاما عاشتها فى ايستوود بين عمال المناجم وزوجاتهم ، وبالرغم من أن والدة لورانس وعدت والدة جيسى بأن تزورها فى مزرعتها فقد قضت ثلاثة أعوام قبل أن تفى بالوعد الذى قطعته على نفسها . وعندما قررت مسز لورانس أخيرا أن تزور صديقتها اصطحبت ابنها الأصغر معها ، ويسجل لورانس تفاصيل هذه الرحلة فى يوم من أيام الصيف فى روايته «أبناء وعشاق» . ويبدو أن والده لورانس انقطعت عن زيارة صديقتها بعد المرة الأولى ولكن زيارات ابنها الأصغر لعائلة تشامبرز استمرت بشكل منتظم ، وكثيرا ما كان يحضر ومعه احدى المجلات ليطلع أفراد العائلة عليها ورغم أن علاقة الغلام لورانس بوالد جيسى كانت ودية للغاية فإن إخوتها الذكور كانوا يتحاشونه

فى بادىء الأمر خوفا من أن يسلك معهم مسلكا متعجرفا أو متعاليا ، وتذكر جيسى أن لورانس فى ذلك الوقت كان يحضر فجأة ويدلف فى هدوء إلى المطبخ الدافىء الذى تنبعث منه رائحة (الخبيز) الزكية ، ولكن زيارات لورانس لعائلة تشامبرز بدأت تقل بعد التحاقه بالعمل ككاتب فى نوتنجهام ، وفى صيف عام ١٩٠٦ رافقت جيسى د هـ لورانس ووالدته لقضاء إجازة على شاطىء لينكولن شير ، وفى خلال هذه الإجازة عاملها لورانس بقسوة . وعندما كتب د. هـ . لورانس روايته «أبناء وعشاق» أمدته جيسى بمذكرات سجلت فيها علاقته بها وقسوته عليها ، وقد أفاد لورانس من مذكرات جيسى فى هذا الصدد وضمنها ذلك الفصل من الرواية الذى يحمل عنوان «هزيمة ميريام» وفيه يطلب اليها بول أن تنفصل عنه لأنهما لايحبان بعضهما البعض حبا خالصا . وتدل الحادثة التالية على موقف والدة لورانس الاخلاقى المتشدد فى شئون الجنس ، فقد كانت لا تكف عن لفت نظر أفراد عائلتها إلى المصائب التى يمكن أن تلحق بالمرء من جراء خمس دقائق من اللذة ينسى فيها المرء نفسه

كانت لظروف نشأة د هـ. لورانس فى قرية ايستوود أثرها البالغ فى أدبه فقد تبوأ الريف فى قلبه مكانا بارزا وانعكس كلفه به على انتاجه الفنى ، ويتضح لنا من دراسة هذا الانتاج أنه لايعنى بتصوير المدينة الا قليلا ، ولم يكن لورانس نفسه يطيق أن يعيش فى المدن طويلا .

صحيح أن أحداثه الروائية قد تقع فى ضواحى المدن ولكن الطابع الريفى يغلب عليها . فالبيئة الريفية تستأثر باهتمامه أكثر مما تستأثر الضواحى به ، ولعل الصواب لايجانبنا إذا قلنا إن المستعمرة أو المدينة

الفاضلة التى ظل لورانس طيلة حياته يحلم بإنشائها تحت اسم «رنانين» لم تكن سوى قرية تخيلها فى صورة مثالية .

ومهما كان الأمر فإن حياة د. هـ. لورانس لم تكن بؤسا كلها ، فقد كان يفرح بزيارة السوق التى تقام مرتين كل عام لمدة ثلاثة أيام من شهرى سبتمبر ونوفمبر، كانت سوق سبتمبر تقام على مساحة من الأرض الفضاء أمام الحانة التى كان الأب يتردد عليها ، وهى نفس الحانة التى صورها لورانس فى روايته «أبناء وعشاق» . ونحن نقرأ فى الفصول الأولى من هذه الرواية أن الأطفال يغمرهم الفرح والابتهاج عندما يزورون هذه السوق ، فى حين يحتسى الأب الخمر فى الحانة المجاورة ، ثم يعود إلى بيته حيث تستقبله زوجته بالملامة والتقريع وتبدأ حلقة من سلسلة المنازعات الزوجية العنيفة التى لاتنتهى ، أما السوق الأخرى التى كانت تقام فى شهر نوفمبر من كل عام فيرجع أصلها إلى تقليد قديم اندثر بمرور الزمن . ولكن فكرة اقامة السوق نفسها استمرت بالرغم من اندثار الأصل ، فقد كان الفلاحون من القرى المجاورة يحضرون إليها بحثا عن العمل ، وكانت العادة المتبعة حينذاك أن يأتى أصحاب الأعمال إلى السوق لاختيار من يشاءون من العمال وعقد اتفاق معهم ، وكان صاحب العمل يعطى الفلاح الذى يريد استئجاره بنسا واحدا بمثابة عربون أو عقد اتفاق بينهما ، فيصبح بذلك لزاما على هذا الفلاح أن يعمل فى خدمته لمدة عام بأكمله . وفى طفولته أيضا كانت الفرحة تستبد بـ د.هـ. لورانس حين يحضر حفلات التمثيل التى تقيمها تحت خيمة كبيرة بعض فرق التمثيل المحلية المتجولة عند زيارتها لقرية ايستوود . ومن بين التمثيليات التى شاهدها لورانس فى طفولته وتركت فى نفسه أعمق

الأثر– رغم فجاجة تمثيلها وما تردى فيه الممثلون من اخطاء – مسرحية شكسبير المعروفة «هاملت» ، وتأثر لورانس بالذات بذلك المشهد الذى يظهر فيه شبح والد هاملت وهو يرتدى درعا ويخاطب ابنه قائلا : «هاملت اننى شبح أبيك» . وكان لورانس كذلك يحضر حفلات الاستماع إلى الأدب المقروء التى يرتادها المستمع نظير بنس يدفعه وكانت أهم فقرة فى هذه الحفلات الأدبية قراءة بعض أعمال ديكنز الروائية من فوق منصة ، تماما كما كان ديكنز نفسه يفعل أثناء تجواله فى البلاد ، ولكن مما يؤسف له أن هذا التقليد الأدبى الجميل اندثر فى يومنا الراهن . وإلى جانب ذلك أنشأ روبرت ريد – الذى عين قسيسا فى ايستوود – جمعية أدبية كان لورانس يتردد عليها ، وتوثقت عرى الصداقة بين هذا القسيس ووالدة لورانس ، فقد كانت تأنس إليه بقدر ما كان يأنس إليها نظرا لما لاحظه فيها من عناية بالثقافة واهتمام بشئون الفكر والأدب . ويجد من يقرأ رواية «أبناء وعشاق» تسجيلا لزيارات هذا القسيس المتكررة لوالدة لورانس التى كانت تستقبله بكل حفاوة وتقدير ، كما تسجل هذه الرواية كيف كان زوجها عامل المنجم يتعمد مضايقة هذا القسيس وإحراجه ، وذلك بالإلحاح عليه أن يتحسس على ملابسه آثار العرق الذى كان يتصبب منه أثناء عمله المضنى تحت باطن الأرض .

كان لورانس فى طفولته يتردد كثيرا على الكنيسة ، الأمر الذى حدا به فيما بعد الى أن يكتب أنه تشرب الإنجيل منذ نعومة أظفاره ، ويتضح لنا أن سفر الرؤيا ، الذى يتنبأ فيه يوحنا بنهاية العالم ، كان دائما ماثلا أمامه بسبب كثرة ترديده على مسامعه ، يقول لورانس فى هذا الصدد :

« كنت أعرف منذ طفولتى المبكرة لغة سفر الرؤيا وصوره ، ولا يرجع هذا إلى أنى كنت أقضى وقتى فى قراءته ولكنه يرجع إلى انهم كانوا يرسلوننى إلى مدارس الأحد والكنيسة وجمعية خلاص النفوس وجمعية المساعى المسيحية ، كانوا دائما يتلون على سمعى آيات الإنجيل سواء كنت راغبا فى ذلك أم كارها فيه »

ولحسن حظ د. هـ لورانس فى طفولته ان المشرف على مدارس الأحد فى ذلك الوقت - وهو رجل ذو لحية بيضاء اسمه مستر ريمنجتون- كان يلقن الأطفال الترانيم الدينية ذات الطابع الحماسى مثل ترنيمة «اطلقوا صرخة المعركة» و «ذودوا عن القلعة لأنى آت إليكم» و «هبوا للدفاع عن يسوع المسيح» ، فقد كانت هذه الترانيم الدينية بما تنطوى عليه من روح قتالية تروق له أكثر مما تروق له الترانيم الوديعة أو المستسلمة . ولاشك أن هذا يعطينا صورة واضحة عن تأصل روح النضال أو القتال فيه منذ نعومة أظفاره ، ويتذكر لورانس موقفه من الدين فى تلك الفترة المبكرة من حياته ، فيقول :

«إن فظاعة العواطف السنتمتالية الرخيصة التى اعترت الدين كأنها مرض البرص لم تكن قد اجتاحت قريتنا المنتجة للفحم ، وانى مازلت أذكر اننى عندما كنت فى الصف الثانى فى مدارس الأحد أن المدرسة حاولت أن تجعلنا نشعر بالأسى لصلب المسيح ، وظلت هذه المرأة تردد «أولستم حزانى على يسوع المسيح ؟ أولستم حزانى عليه ؟» ، فاجهش معظم الأطفال بالبكاء ، ولكن الشىء الذى يحيا ماثلا فى ذاكرتى هو أننى قلت لنفسى حينذاك : «إننى فى الحقيقة لا أهتم بهذا الأمر البتة» ولم يزايلنى بعد ذلك شعور بأنى لا أهتم مطلقا بقصة صلب

المسيح بأى شكل من الأشكال ، ولكن أعجوبة الصلب غارت فى أعماقى»

وكان هذا الإحساس بأعجوبة الصلب سببا فى شغفه بالترانيم الدينية، ويعترف لنا لورانس أن أعظم ما انتجته قرائح أبرز الشعراء مثل قصيدة ورذورث «انشودة الخلود» ، وأناشيد كيتس ، وغنائيات جوته وفيرلين ، وبعض أجزاء من شكسبير لم تستطع أن تغور فى أعماقه مثلما استطاعت الترانيم الدينية العادية التى تلقنها فى طفولته أن تغور فى نفسه ، ويبدو أثر هذه الترانيم المنتشرة بين عمال المناجم واضحا فى قصته «الأفعى ذات الريش» (١٩٢٦)

وفى طفولته كانت والدة لورانس تحرم دخول الحيوانات الأليفة فى البيت، فقد كانت تعتقد ان تربية هذه الحيوانات تتنافى مع النظافة والذوق السليم، وكان هذا التحريم سببا فى مضايقة الابناء وفى مقدمتهم لورانس، وألح الاطفال على أمهم ان تسمح لهم باقتناء بعض هذه الحيوانات يؤيدهم ابوهم فى ذلك، الامر الذى اضطرها فى نهاية الامر الى الرضوخ لرغباتهم ويصور لورانس فى قصتين له بعنوان «أدولف» و «ركس» اولهما ارنب وثانيهما كلب اراد الاطفال تربيتهما . ويعكس ادب لورانس شغفه بالحيوانات كما تدلنا على ذلك تلك الطائفة الكبيرة من القصائد والقصص التى كتبها عن الحيتان والفيلة والخفافيش وغيرها من الحيوانات . ومما ينم عن مقدار حسه المرهف وشفقته بالحيوان ما ترويه أخته «إيدا» من انه اصيب بالغثيان فى المدرسة عندما اضطر الى تشريح ضفدعة.

كان جورج ، اكبر أبناء عائلة لورانس ، اكثرهم وسامة فى حين كان وليم - ارنست - قرة عين العائلة وموضع فخرها - نابها فى دراسته بمدرسة بوثال الداخلية ، ولكن ظروف عائلته القاسية اضطرته الى البحث عن عمل وهو غلام لا يتجاوز عمره الثانية عشرة فاشتغل كاتبا فى مكتب تابع لإحدى شركات المناجم، ثم التحق بخدمة جمعية تعاونية محلية، ولكن وليم استطاع بفضل مثابرته وجلده ان يواصل دراسته فى المساء ويتعلم الاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة الى جانب اللغتين الفرنسية والالمانية . وعندما بلغ الحادية والعشرين شد رحاله الى لندن حيث التحق بخدمة احدى الشركات.

واصبح على د. هـ . لورانس الصغير ان يتنافس مع اخيه وليم حتى يصل إلى ما وصل اليه من تعليم، والتحق بنفس المدرسة التى سبق ان التحق بها اخوه وليم، وأمضى بها خمسة اعوام لم يكن سعيدا فى معظمها .

ولولا حرصه على إرضاء أمه التى كانت تشير بفخر واعتزاز الى منجزات اخيه الدراسية وتحثه على الاقتداء بها لأعرض لورانس عن الدرس والتحصيل وفى هذا الصدد يذكر لنا جورج فى عام ١٩٥٠ أن دراسة أخيه لورانس على كره منه ، كانت تسبب له صداعا وانه لولا حرصه على مشاعر أمه وخوفه من إغضابها لما تردد فى ان ينبذ هذه الدراسة نبذا تاما. وفى مقال كتبه لورانس فى عام ١٩٢٩ بعنوان «عبيد المدنية» نراه يحسد أباه الجاهل لأنه استطاع ان يفلت من قبضة المدارس والمعلمين، ويصف لورانس جيل والده بأنه جيل ظل يحتفظ

بوحشيته ، فلم تستطع المعلمة ان تعلمه كتابة اسمه إلا بشق الأنفس، وكان يهرب من جو المدرسة الخانق لينطلق فى احضان الطبيعة، ويستمتع بجمال الريف . ويأسى لورانس لأن جيله قد غدا اسير السلطة التعليمية، ولم تكن هذه الكراهية المشبوبة للمدارس والقائمين بأمر التعليم قاصرة عليه وحده فقد شاركه فيها كل زملائه من ابناء عمال المناجم الذين ينظرون الى المدرسة نظرتهم الى سجن يقوم المدرسون بحراسته . وكان اول يوم ذهب فيه الى المدرسة يوما تعسا فقد انخرط عندئذ فى البكاء ، وسرعان ما اصبح تشبثه وعناده سببا فى اصطدامه بإدارتها . كان اسم دافيد كريها على نفسه يود ان يتبرأ منه، وكلما ناداه مدرسه و. و. وايتهد بهذا الاسم امتنع عن الرد عليه، الامر الذى احنق المدرس وأثار ثائرته وجعله يعنفه قائلا: «إن دافيد اسم رجل عظيم صالح» مشيرا بذلك الى النبى داود فى الكتاب المقدس، وكان وايتهد يعامل تلاميذه ابناء عمال المناجم بفظاظه وغلظة تتناسبان مع فظاظتهم وغلظتهم ينهرهم تارة ويضربهم تارة حتى يستطيع فى نهاية الأمر ترويضهم ولم يكن هناك مفر من أن يقبل تلاميذه اسلوبه الخشن فى التربية والتعليم ، فقد كان يحظى بتأييد أولياء الأمور وثقتهم ، وكان لهذا المعلم الغليظ الفظ على اية حال فضل فى حصول لورانس فيما بعد على منحة دراسية مكنته من الالتحاق بمدرسة نوتنجهام العالية ليواصل بعدها دراسته بجامعة - كلية نوتنجهام . وفى يفاعته كان لوراتس بين زملائه الطلبة الاجلاف يعانى من ضعف بنيته ومن عجزه - بعكس اخويه جورج ووليم - عن الدفاع عن نفسه ضد اعتدائهم عليه وتحرشهم

به. ويسبب ضعفه وهزاله كان لورانس يعزف عن الاشتراك فى الألعاب الرياضية، ولاحظ زملاؤه هذا الضعف فتعمدوا مضايقته والإساءة اليه ، وكانت نتيجة ذلك بطبيعة الحال انه احجم عن صحبتهم واتجه الى صحبة الفتيات.

ويقول وليم هوبكن انه مر ذات يوم على المدرسة وقت انصراف التلاميذ منها فشاهده يسير وسط فتاتين وبقية التلاميذ من خلفه يعيرونه ويتغنون ببيت من الشعر مما يتغنى به التلاميذ عادة بهدف معاكسة اقرانهم ومشاكستهم مفادة ان برت (وهو الاسم المختصر لهربرت) مخنث تروقه صحبة الفتيات.

وجاهد الغلام حتى لا يظهر عليه الاكتراث بسخريتهم منه، ولكن عينيه كانتا تتقدان بالغضب والعذاب، ولأنه كان من الناحية البدنية اضعف من ان يذود عن نفسه غائلة تهكمهم فقد استطاع بمضى الوقت ان يدافع عن نفسه بسلاح حاد هو لسانه اللاذع ، ويذكر احد زملائه من الطلبة فى تلك الآونة أن لورانس عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره كان يلجأ فى اخراسهم الى تعليقاته المرة القاسية، ولعل اكبر اذلال واجهه فى صباه هو سخرية صرافى شركة المناجم منه، فقد كان من عادة والده ان يرسله لتسلم اجره الاسبوعى نيابة عنه فكان الصبى الهزيل يضيع فى زحمة العمال الكبار الذين يتجمعون لتسلم اجورهم ، وكان يحلو للصرافين ان يزيدوا من محنته بالتهكم عليه وعلى والده السكير على مرأى من جميع الحاضرين وسمعهم، ويصور لورانس فى روايته «ابناء وعشاق» مقدار ما كان يتعرض له من مذلة ومهانة عندما يتوجه الى مكتب

صرف اجور العمال بدلا من والده، فيتهكم عليه الصراف بقوله: «هل بلغ السكر بأبيك مبلغا يحول بينه وبين الحضور كى يتسلم اجره بنفسه ؟».

لقد كان اخواه الاكبر سنا يتعرضان لنفس التهكم ولكنهما كانا يملكان من الجرأة ما يجعلهما يردان على سخرية الصراف بسخرية مماثلة، ولكن انى للصبى ان يفعل مثلهما فحياؤه الجم يعقد لسانه.

وعندما بلغ لورانس الثانية عشرة من عمره حصل على منحة دراسية مكنته من الالتحاق بمدرسة نوتنجهام العالية، وتدل سجلات هذه المدرسة العتيقة ان الطالب دافيد هربرت لورانس التحق بها فى ١٤ سبتمبر ١٨٩٨، ولكن مكافأة المنحة - وهى خمسة عشر جنيها فى العام - لم تكد تكفى لتغطية نفقات الدراسة والسفر المستمر ذهابا وايابا بالقطار بين قريته ايستوود ونوتنجهام، وأوشكت ضآلة المنحة أن تحول بينه وبين مواصلة التعليم لولا إصرار الأم وتصميمها على ان توفر لابنها كل ما تستطيع حتى يستكمل تعليمه فيهرب من المصير القاتم الذى كان حتما سينتظره لو ان تعليمه توقف عند ذلك الحد، وهو العمل كأبيه تحت باطن الارض فى مناجم الفحم، واقتضى ذلك العزم منها بذل تضحيات هائلة، فضغطت مصروفات البيت على الرغم من ضآلة دخلها.

ولعبت المنحة التى حصل عليها لورانس لمواصلة دراسته فى مدرسة نوتنجهام العالية دورا حاسما فى حياته، فقد فتحت امامه آفاقا كان من الجائز ان تظل موصدة فى وجهه الى الأبد، ولكن هذه

المنحة كانت كذلك سببا في تدهور صحته . فقد انهكه السفر المستمر ، وكان يخرج من بيته في زمهرير الشتاء في السابعة صباحا ليعود اليه في المساء في نفس الميعاد، ومن جراء ذلك بدأ يسعل سعالا حادا ظل يلازمه طوال حياته، وفي مدرسة نوتنجهام العالية بدأ لورانس ينسى سوء معاملة مدرسة وايتهد واستخدامه العصا كأسلوب لا محيص عنه في التربية والتعليم، وداخله الرضا والارتياح لأسلوب القس جيمس جو معلمه الجديد المتسامح الموهوب الذى يفيض حيوية ونشاطا، وبالرغم من الاعتقاد الشائع الذى يردده ت . س . إليوت، وغيره بأن لورانس لم يكن متعلما فإنه يبدو ان التعليم الذى تلقاه في مدرسة نوتنجهام العالية كان ممتازا وراقيا، زاده عمقا وامتيازا انتظامه في الدراسة في بعض المعاهد العليا بعد تخرجه في هذه المدرسة. ويرى ف . ر. ليفز ان التعليم الذى حصل عليه لورانس في هذه المدرسة . افضل من اى تعليم كان من الممكن ان يحصل عليه في اى معهد آخر، وتتلخص ميزة هذا التعليم في قدرته على تطوير عبقريته وإنضاجها الى اقصى حد ممكن . ومن المفارقات التى تدعونا الى الابتسام ان نعلم ان سجلات مدرسة نوتنجهام العالية تشير الى تفوقه في الرياضيات في حين انها تسجل تخلفه في مادة الإنشاء في اللغة الإنجليزية.

وفي تلك الفترة من حياته كان لورانس على صلة وثيقة بامرأة تدعى مس رايت كانت تعاونه في فهم مايستغلق عليه فهمه من الدروس . وفي القصة التى كتبها بعنوان «الفتاة الضائعة» في عام ١٩٢٠ نراه يشيد بفضل هذه المرأة عليه، ويقدم لنا لورانس في هذه

القصة صديقته مس رايت فى صورة مربية تدعى مس فروست تعمل فى خدمة «الفتاة الضائعة» . ويدعونا هذا إلى أن نذكر أن لورانس يستمد مادته الروائية من واقع الحياة كما ان شخصياته الروائية حقيقية، وليست من نسج الخيال. ولكنه لا ينقل تجارب هذه الشخصيات من الواقع بحذافيره فهو يخلط تجارب واقعية لعدد من الاشخاص ثم ينسبها الى شخصية واحدة من شخصياته الروائية.

وفى خريف عام ١٩٠٢ التحق لورانس بالتدريس فى المدرسة البريطانية فى ايستوود على اساس ان يقوم بالتدريس فى الصفوف الاولية وان يستكمل دراسته فى نفس الوقت على يد ناظر المدرسة . واستمر عمله فى مهنة التدريس حتى صيف عام ١٩٠٦ ، وضمن لورانس كثيرا من تجاربه خلال هذه الفترة فى شخصية اورسولا التى رسمها فى روايته «قوس قزح» (١٩١٥) ، ولم يكن لورانس موفقا فى عمله كمدرس فقد اقتضت منه مهنته الشاقة ان يجمع تلاميذ بضعة فصول فى حجرة دراسية واسعة يصعب فيها السيطرة عليهم وعلى مشاغباتهم وتناحرهم الذى لا ينتهى ، الامر الذى حدا به الى ان يصف تدريس ابناء عمال المناجم بأنه عمل متوحش . وينحى هوبكن ـ الذى كان يعرفه معرفة وثيقة فى تلك الفترة ـ باللائمة على لورانس لأنه بدأ حياته كمدرس فى مسقط رأسه ايستوود وذلك لأن معرفة أولياء الأمور به وبعائلته وأصلها الاجتماعى لم تساعده على اكتساب احترامهم . وعندما اشتغل بالتدريس لم يكن

راتبه السنوى يزيد على خمسة جنيهات ارتفعت الى ثلاثة اضعافها فى خلال الثلاث سنوات التالية.

وتأثر لورانس بقانون التعليم الصادر فى عام ١٩٠٢ الذى نص على تدريب المعلمين فى مراكز محددة للتأهيل التربوى ، وطبقا لهذا القانون تعين على المدرسين الذين يعملون فى منطقة ايستوود - ومن بينهم لورانس وصديقته جيسى تشامبرز - ان يلتحقا فى خريف ١٩٠٣ بمركز تدريب المعلمين فى ايلكستون . وتتضارب الاقوال بصدد حياة لورانس فى تلك الفترة (من ١٩٠٣ إلى ١٩٠٥) ففى حين تذكر جيسى تشامبرز انه كان سعيدا فى ايلكستون نجد ان صديقه جورج نيفيل يخالفها فى الرأى.

وهناك بعض الشواهد الاخرى التى لا تؤيد جيسى تشامبرز فيما تذهب اليه منها رواية «قوس قزح» التى ضمنها لورانس كثيرا من تجاربه فى خلال هذه الفترة . ويجدر بنا فى هذا الصدد ان نذكر أنه استمد شخصية إورسولد من فتاة حقيقية اسمها لوى باروز تعرف بها فى ايلكستون وانه يعكس كثيرا من تجاربه وتجارب لوى باروز فى شخصية اورسولا. ولعل شخصية توماس بيكروفت ناظر المدرسة فى ايلكستون الذى يظهر فى رواية «قوس قزح» تحت اسم مستر هاربى - كانت ابغض شىء الى قلبه. ويرسم لنا لورانس فى هذه الرواية صورة كاريكاتورية لطغيانه وغطرسته ، وبالرغم من ان جيسى تشامبرز تقول ان علاقة لورانس بهذا الناظر كانت ودية للغاية فإن الشواهد فى رواية «قوس قزح» وفى غيرها تنفى ذلك ، وفى هذه الشواهد ان جورج نيفيل يؤكد لنا ان ذلك

الناظر كان مكروها من جميع المدرسين ، وان علاقة لورانس به لم تكن على مايرام .

لم يكن اهتمام لورانس بلوى باروز قاصرا على تصويره اياها فى شخصية اورسولا فى «قوس قزح» بل انه عبر عن اهتمامه بها فى شعره، كانت لوى تصغره بعامين ونصف ، وكان والدها الفريد باروز يهوى الحفر على الخشب.

ودفعته هذه الهواية الى انشاء جمعية للحفر على الخشب ، ويصور لنا لورانس فى «قوس قزح» هذا الرجل على انه شاب حالم مثل الشاعر راسكين تنصرف هوايته الى الحفر القوطى على الخشب .

وفى مركز تدريب المعلمين فى ايلكستون استطاع د. هـ . لورانس- بفضل رعاية ناظر المدرسة مستر توماس بيكروفت الذى تتلمذ على يديه - ان يفوز فى ديسمبر عام ١٩٠٤ بالمرتبة الاولى بين جميع المتقدمين فى كل من انجلترا وويلز لامتحان منحة دراسية تعرف باسم منحة الملك الدراسية. وكان تفوقه فى اجتياز هذا الامتحان سببا فى لفت النظر الى كفاءته العلمية، وفى عام ١٩٠٥ تقدم الى امتحان لندن الذى عقد فى نوتنجهام للحصول على شهادة الثانوية العامة .

ولكن التوفيق لم يحالفه فى هذا الامتحان مثلما حالفه فى الامتحان الاول فكان ترتيبه فى هذه المرة فى الصفوف الثانية. وبفضل ما اجتازه من امتحانات اصبح للورانس الحق فى الحصول على منحة دراسية مكنته من مواصلة الدراسة فى جامعة - كلية

نوتنجهام ، ولكنه لم يستطع الالتحاق بهذه الجامعة فور حصوله على المنحة ، نظرا لأنه لم يكن يمتلك الرسوم المقررة - وهى عشرون جنيها- كان يتعين عليه ان يدفعها مقدما، وهنا تدخلت الأم واظهرت اصرارا على ان يواصل ابنها دراسته العليا مهما كانت الظروف ، ودفعته إلى الاشتغال بالتدريس لمدة عام (١٩٠٥ - ١٩٠٦) استطاع خلالها ان يوفر كل ما يمكن توفيره فضلا عن انها شدت الحزام على بطنها وبطون افراد العائلة ، وفى هذا العام بالذات توفر لورانس على كتابة اولى رواياته «الطاووس الأبيض» (١٩١١) .

وفى حين كان يبذل كل جهده لتوفير كل ما يستطيع من مال لمواصلة دراسته، كانت العائلة تجتاز ضائقة مالية شديدة، وكانت تكأة (مخدة) حجرة الجلوس تحتاج الى تنجيد، ولكن ظروف العائلة القاسية حالت دون ذلك، الامر الذى اضطر لورانس الى اصلاحها مع صديق العائلة جورج نيفيل. ويذكر نيفيل عن تلك الفترة انه رأى والدة لورانس ذات يوم تنخرط فى البكاء لأن زوجها عاد من عمله وهو يحمل ١٤ شلنا وخمسة بنسات ونصفا فقط هى كل ما تقاضاه عن اسبوع من العمل المضنى الشاق لأن المنجم كان يواجه حينذاك ظروفا سيئة . وبالرغم من ذلك فقد ظهر د. هـ. لورانس فى حلة جديدة من قماش الفانيلة، ولما وقعت انظار ابيه عليها فغر فاه دهشة وسأله إذا كان قد دفع ثمن الحلة التى يلبسها ام انه اشتراها على الحساب ، الامر الذى جعل مؤلفنا يخرج من البيت مغاضبا ويغلق الباب وراءه فى عنف ، وان دلت هذه الحادثة على شىء فإنها تدل

على مقدار ما بذلته الام من تضحيات من اجل ابنائها رغم ما كانت فيه من ضنك.

وفى سبتمبر عام ١٩٠٦ اى فى نفس الشهر الذى بلغ فيه لورانس الحادية والعشرين من عمره التحق بجامعة - كلية نوتنجهام التى كان فيها نوعان من الدراسة ينتهى احدها بالحصول على درجة علمية فى الآداب او العلوم البحتة من جامعة لندن، اما الدراسة الأخرى فكانت تربوية ومدتها سنتان، وهى دراسة حرة لا تنتهى بالحصول على أية درجة علمية، وبالرغم من ان نية لورانس الأصلية كانت تتجه فى بادىء الأمر الى الدراسة من اجل الحصول على درجة علمية فإنه تخلى عنها عن طيب خاطر وارتضى لنفسه متابعة المنهج الأسهل الذى لا يقتضى من الطالب الحصول على درجة علمية لأن ذلك يوفر له فسحة من الوقت استطاع ان يكتب فيها اولى رواياته «الطاووس الابيض» ويجدر بنا فى هذا الصدد ان نذكر اننا نلتقى على صفحات هذه الرواية بشخصية حارس الصيد أفابيل الذى يتكرر ظهوره فيما بعد تحت اسم «ميلورز» فى آخر رواية قيض لـ . د. هـ . لورانس ان يكتبها وهى «عشيق الليدى تشاترلى» (١٩٢٨) التى درسناها بالتفصيل فى موضع آخر * . قلنا انه من المفارقات ان نعلم ان سجلات مدرسة نوتنجهام العالية تشير الى تخلف د. هـ. لورانس فى مادة انشاء اللغة الانجليزية، وقد تكررت هذه الظاهرة ايام الطلب فى الجامعة ، اذ كان اساتذته يعترضون بشدة على ما يكتبه من موضوعات انشائية . وبالرغم من انه كان ينصرف فى تلك الفترة

* انظر كتابى «الأدب والجنس» ، دار أخبار اليوم ١٩٩١ .

إلى كتابة «الطاووس الابيض» التى وجد يسرا فى نشرها (فقد نشرها له اول ناشر عرضت هذه الرواية عليه) فإن اساتذته فى الجامعة كانوا ينتقدون كتابته الإنشائية نقدا شديدا ، فضلا عن ان مجلة الجامعة رفضت ان تنشر له قصيدة نشرها فيما بعد فى مجموعة قصائده، وكان ذلك بطبيعة الحال يسبب له ضيقا عظيما، الامر الذى خيب امله فى هيئة التدريس وافضى الى انعدام ثقته بها، ويمكننا الرجوع الى روايته «قوس قزح» اذا اردنا ان نتبين حقيقة موقفه منها، ومن المفارقات الغريبة ان كبريات المجلات الادبية كانت اكثر تقديرا لقصائده من مجلة الطلبة الجامعية، فقد اقبلت هذه المجلات على نشر شعره وسرعان ما تبين الشاعر الكبير ازرا باوند مافيه من حداثة.

اتجه د. هـ. لورانس فى بداية حياته الفنية - وهو لا يعدو التاسعة عشرة من عمره - الى قرض الشعر، وكان يحلم فى يفاعته بتكريس حياته لكتابة الشعر، ولكن اصله الاجتماعى المتواضع جعله يشعر بالخجل من ان يراوده مثل هذا الحلم، فقد اسر لجيسى تشامبرز فى يوم من الايام بأن الناس سيهزأون بابن عامل المناجم يتخذ من قرض الشعر مهنة له ، وحاولت جيسى ان تشد من ازره وتهون عليه فأكدت له ان عمل ابيه لا يشين شعره فى قليل او كثير، وفكر لورانس فى ان يكتب نثرا ، واتفق مع جيسى على ان يكتب كل منهما رواية ثم يعقدان المقارنات بين روايتيهما .

واقترح عليها اتباع خطة عمل تتلخص فى ان يبدأ كل منهما بزوجين (أى اربع شخصيات) ثم يطور العلاقة بينهما، وقال لورانس

فى دفاعه عن هذا المنهج ان معظم روايات جورج اليوت تنتهجه ، وانه لا يبغى انشاء حبكة روائية لأن الحبكة الروائية تبعث فيه الملل، وفى عام ١٩٠٦ سلم لورانس ما كتبه لجيسى ـ وهو مخطوط رواية «ابناء وعشاق» حتى تبدى رأيها فيه.

كان وليم اخو لورانس الاكبر متعلقا بأمه اشد التعلق. وعندما كانت الفتيات فى ايستوود يترددن عليه فى بيته كانت الام تعمل كل ما فى وسعها للتخلص منهن، ويعتقد د. هـ. لورانس ان اخاه وليم اصابه الانهيار الذى افضى الى موته عندما حاول ان يفلت من قبضة امه عليه بالنزوح الى لندن والاشتغال فيها، وفى لندن بدأ وليم يتخلص من سيطرة امه عليه ووقع فى غرام فتاة تافهة اسمها جيسى دينيس تعمل بالاختزال ، وعندما جاء بها وليم الى ايستوود لتزور عائلته وتتعرف عليها عاملتها امه بأدب ولكن كان من الواضح ان تفاهتها لا تروقها وساء الام ان يحب ابنها فتاة تافهة تعيش من اجل الاستمتاع بالحفلات والرقص ولا تعنى بشىء غير اناقة ملبسها، ويلتقى القارىء بهذه الفتاة الضحلة التافهة على صفحات رواية «ابناء وعشاق» تحت اسم لويزا ليلى دينيس ويسترن.

وحيث اراد لورانس الالتحاق بعمل فى مصنع فى مدينة نوتنجهام لانتاج الاطراف الصناعية للمشوهين وذوى العاهات طلب الى اخيه وليم الذى استطاع ان يشق طريقه بنجاح فى لندن ان يساعده بما لديه من خبرة فى هذا الشأن، وكتب له وليم طلبا للاستخدام مكنه من التقدم لشغل وظيفة شاغرة فى هذا المصنع واصاب الغلام لورانس

الفزع عند مرأى الاطراف الصناعية لأول مرة فى حياته ، فلم يكن يخطر على باله قط ان تكون هناك أرجل صناعية خشبية ، فضلا عن ان تكون هذه الارجل سلعة تشترى وتباع، وتسجل لنا رواية لورانس «ابناء وعشاق» قصة اشتغاله بهذا المصنع ، كما انها تصور شعور الفزع الذى اصابه عند رؤية الاطراف الصناعية لأول مرة فى حياته، ولم يعمل لورانس فى هذا المصنع مدة طويلة بعكس ما جاء فى «ابناء وعشاق» ولكنه استطاع فى خلال المدة القصيرة التى اشتغل فيها (وهى لا تزيد على ثلاثة أشهر) ان يستوعب كل تفاصيل العمل فيه وان يستخدم هذه التفاصيل فيما بعد فى اعماله الروائية، وتقاضى الغلام من عمله بالمصنع اجرا اسبوعيا قدره ثلاثة عشر شلنا فى الاسبوع، واقتضى العمل منه السفر يوميا من ايستوود الى نوتنجهام باستثناء يوم الراحة الاسبوعى، وبلغت ساعات عمله اثنتى عشرة ساعة يوميا. وعلى الرغم من ان لورانس ـ كما قلنا ـ امضى فترة قصيرة لا تزيد على بضعة أشهر ، ككاتب فى مصنع الاطراف الصناعية، فإنه اهتم اهتماما بالغا بتسجيل تفاصيلها فى روايته «أبناء وعشاق» فى حين انه اغفل تسجيل الفترات الطويلة التى قضاها فى نوتنجهام فى طلب العلم ـ وهى ثلاث سنوات فى مدرسة نوتنجهام العالية ، وسنتان فى جامعة ـ كلية نوتنجهام ـ وكان عمله فى مصنع الاطراف الصناعية يتطلب منه قراءة خطابات العملاء الواردة الى المصنع باللغتين الفرنسية والالمانية وترجمتها الى اللغة الانجليزية وتسجيلها فى دفتر خاص ثم الرد عليها ، وهى كلها خطابات يطلب فيها اصحابها ان يمدهم المصنع بما يحتاجون اليه من مختلف . الاطراف

الصناعية ، وتصور لنا رواية «ابناء وعشاق» علاقته الطيبة الودية بالفتيات العاملات بالمصنع وترسم لنا صورة رقيقة مهذبة لهؤلاء الفتيات ولكن جورج نيفيل الذى كان يعرف لورانس معرفة وثيقة فى تلك الفترة من حياته يؤكد لنا ان هذه الصورة الرقيقة تجافى الواقع تماما.

وفى عام ١٩٥٠ كتب مدير مصنع الاطراف الصناعية يقول: انه يذكر الغلام لورانس جيدا فى الفترة القصيرة التى اشتغل فيها بالمصنع - ويصفه بأنه كان شابا هادئا ومتحفظا للغاية طويل القامة عزوفا عن الكلام فى اوقات العمل وخارجها . ويضيف هذا المدير انه لم تسنح له فرصة يتبادل فيها الحديث معه، خصوصا لانه كان يسارع بمغادرة المصنع للحاق بالقطار الذى يقله الى قريته ايستوود. ويذكر جورج نيفيل ان العاملات الرقيقات اللاتى صورهن لورانس فى روايته ، كن فى واقع الامر فتيات وقحات خشنات من نوع كمساريات الترام اللاتى صورهن فى قصته «تذاكر من فضلك» . وفى هذه القصة نرى عددا من هؤلاء الكمساريات يدفعهن الغيظ من مفتش تذاكر الى الاحاطة به وطرحه ارضا ونزع ملابسه عنه، ويقول جورج نيفيل ان لورانس مر بتجربة مماثلة مع عاملات المصنع فقد التففن حوله فى يوم من الايام وانقضضن عليه بعيدا عن الانظار فى احد مخازن المصنع ، وحاولن - وهو يقاوم فى استماتة - أن يكشفن عن الذكر المستور فيه . ويضيف نيفيل ان هذه الحادثة تركت فى نفسه شعورا عميقا بالاشمئزاز من النساء كما تركته لاهث الانفاس، وفى رأيه انها - فضلا عما عانى فيها من انهاك - كانت سببا فى اصابته بالتهاب رئوى حاد فى شتاء ١٩٠١ - ١٩٠٢ ..

وكانت فجيعة عائلة لورانس فى وفاة وليم فى لندن عنيفة فقد كان يفيض حيوية وشبابا وفى الثالثة والعشرين من عمره . وجاءت وفاته نتيجة اصابته بالتهاب رئوى . وحين سافر والداه إلى لندن وجداه فى غيبوبة حالت بينه وبين التعرف عليهما . وتولت الأم بما تتسم به من نظرة عملية إلى الأمور إنهاء كل اجراءات الوفاة المعقدة ونقل الجثة إلى ايستوود . ويبدو أن وجود زوجها بجوارها كان عديم الفائدة . فقد شكت مسز لورانس إلى جيسى تشامبرز فيما بعد أنه لم يقم بتقديم أدنى مساعدة لها فى تلك المحنة . وبعد أن عاشت عائلة لورانس فى منزلها القديم فى ايستوود مدة اثنتى عشرة سنة انتقلت إلى بيت آخر مجاور لأنها لم تعد تطيق العيش فى مسكنها القديم بعد وفاة ابنها وليم .

ومرت مسز لورانس بمحنة أخرى عندما أصيب ابنها د. هـ . لورانس - كما أسلفنا - بالتهاب رئوى كاد أن يودى بحياته لولا أن تولت الأم رعايته والسهر عليه حتى استطاع فى نهاية الأمر أن يسترد صحته . وكان انتزاع الأم لابنها من براثن الموت ضرورة لاستمرارها فى الحياة ، فقد أصبح ولدها الخيط الوحيد الذى يربطها بها . وبعد وفاة أخيه الأكبر وليم ارنست عاشت هذه الأم تسع سنوات من أجل ولدها دافيد ، تماما مثلما عاش دافيد من أجلها .

كان لورانس يظن أن الالتهاب الرئوى الذى أصابه فى يفاعته مسئول عن اصابته فيما بعد بمرض السل الذى فتك به . ولكن الطبيب الاخصائى فى الأمراض الصدرية الذى كان يعالجه فى

أخـريات عمــره يرى غير هذا الرأى . فقد كتب هذا الطبيب خطابا فى ١٢ سـبتمبر ١٩٥٢ يقول فيه : إنه من العسير تحديد الوقت الذى بدأ فيه السل يتسلل إلى جسـده وأنه شخصيا لا يعتقد وجـود أية علاقة بينه وبين الالتهاب الرئوى الذى هاجمــه فى يفاعته . ويضيف هذا الاخصائى أنه من المحـتمل أن يكون مـرض السل بدأ يتسلل إليـه قبل أول نزيف أصيب به فى منتـصف عـام ١٩٢٠ . وعندمـا داهم الالتـهـاب الرئوى لورانس فى شبابه كان يجلـس فى الشـتـاء - حين يصفو الجو بعض الشيء - على مقعد فى حديقـة منزله ، وقد تدثر بالبطاطين معرضا جسده لأشعة الشـمس . وأحـزن مرضه أصـدقاءه من أســرة تشامبرز التى كان يتبادل الرسـائل معها عن طريق مسـتر تشـامبرز رب العائلة الذى كـان يحضــر مــن مزرعتـه إلى قـرية ايسـتوود كل يوم لتوزيع اللبن فيها . وفى أحد الأيام أخذ مسـتر تشـامبرز الغـلام المـريض معه فى عربة نقــل اللبن إلى المـزرعة حيث استقبله مع زوجتـه بحفاوة بالغة وترحاب خالــص كما لو كان ابنــا لها . وعندما رآه أولاد عائلة تشــامـبـرز رق قلـبـهم له وزال جـفـاؤهم نحوه . وحين بدأ لورانــس يسـترد صحته أرسـلته والدته لقضـاء شـهر للنقـاهة فى بيت أختها الواقع على ساحل لينكولن شـير ذى المنـاظر البديعة الخلابة . وانتشى الغلام بمناظر هذا السـاحل الجميل . وبعد عودته إلى قريته استمر فى زيارة مزرعـة عـائلة تشـامبرز . ولم يكن لورانس حينـذاك يحمل نحو جيسى تشامبرز أية عاطفة ، فقد انحصــر جل اهتمامه بوالديها وأخـويها الكبيــرين آلان و هيوبرت . ولكنه بدأ يشعر بوجودها مثلما بدأت تشـعر بوجوده . وأثار حديثها المثقف فيها رغبتها فى مواصلة التعـليم ، الأمر

الذى اضطر والدتها فى نهاية الأمر إلى السماح لها بالعودة للمدرسة لتعلم وتتعلم فى الوقت نفسه . وأصبح لورانس يشارك عائلة تشامبرز الأعباء المنزلية اليومية . وهو يجد فى ذلك متعة خالصة ، فينظف المدفأة لربة البيت ويقشر لها البطاطس . كما كان يشترك مع رب البيت وأولاده فى جمع الحصاد عندما يحين وقته . وأصبح لورانس أثيرا إلى قلب الأبوين .

وقال عنه رب البيت : «إن العمل يصبح متعة فى وجود برت» .

كما قالت عنه ربة البيت : «إننى أحب أن أكون بجوار برت عندما أذهب إلى السماء» .. وبعد انقضاء عدة أعوام كتب لورانس فى عام ١٩٢٨ يقول إن قلبه لايزال متعلقا - كما كان فى صباه - بكل شىء يتصل بعائلة تشامبرز ومزرعتهم . وليس أدل على عمق الأثر الذى تركته فيه عائلة تشامبرز من أنه اتخذ من مزرعتها مكانا يقع فيه كثير من أحداث روايته «أبناء وعشاق» .

وتذكر ايدا لورانس فى مذكراتها أن جيسى تشامبرز استطاعت أن تجذب أخاها إليها بفضل جديتها وشدة اهتمامها بالكتب بخلاف غيرها من فتيات قرية ايستوود اللاتى ينصرفن إلى البحث عن عشاق ومحبين وتستأثر الملابس الجديدة بكل اهتمامهن . وكانت جيسى تنفر من خشونة إخوتها الذكور الأجلاف . الأمر الذى دعاها إلى الترحيب بصداقة لورانس والاستماع إلى حديثه وشاركته اهتماماته الثقافية . وبذلك لعبت هذه الفتاة دورا مهما فى مساعدة لورانس على تطوير أفكاره فى شئون الأدب والحياة . وحين دعاها لورانس إلى زيارته فى منزله رفضت دعوته فى بادىء الأمر . فاتهمها بالرغبة فى تحاشى

والده السكير والخوف من مقابلته . وبالرغم من مقتها للخمور ومدمنيها فقد أكدت له الفتاة أنه ليست هناك علاقة بين احجامها عن زيارة عائلته ورغبتها فى تجنب والده . وأراد لورانس أن يدخل الطمأنينة إلى قلبها فأكد لها أن أباه لا يجىء إلى البيت إلا نادرا . وتحققت جيسى تشامبرز من صدق هذا القول عندما زارت عائلة لورانس فيما بعد . ولاحظت جيسى جو التوتر الذى يسود البيت وأفزعها هذا التوتر الذى ردته إلى حزن الأم على وفاة ابنها وليم إرنست ، وكراهيتها لزوجها وحبها العارم لولدها دافيد . وعندما توثقت عرى الصداقة بين جيسى وعائلة لورانس بدأت والدة لورانس فى تنظيم الرحلات لها ولأولادها . وكان د. هـ . لورانس يرأس الجماعة فى تلك المناسبات ويرشدها إلى الأماكن التى تستحق المشاهدة ويعلمها اسماء ما تصادفها فى طريقها من طيور وزهور . وكانت هذه الرحلات أحب الأوقات جميعها إلى نفس جيسى ، وخاصة تلك الأوقات التى يتمكن فيها لورانس من الانفراد بها بعيدا عن مراقبة الأم وسائر أعضاء الجماعة المتجولة .

وتذكر جيسى تشامبرز فى كتابها عن د. هـ . لورانس حادثة لها دلالتها تتلخص فى أنها رأته فى أثناء احدى الرحلات التى كان يصحبها فيها مع بقية أفراد عائلته منكبا على شىء فى وسط الطريق وعلى وجهه علامات انزعاج وألم ممض واستغراق عميق فى التفكير . فلما اقتربت منه رأته ينحنى على مظلة يتفحصها فى لوعة وحسرة . وعندما سألته عما دهاه أجابها بقوله «إن مظلة أخى قد انكسرت وسترتاع والدتى إذا رجعت بها مكسورة إلى البيت» . وتدل هذه

الحادثة على أنه ابن أمه التى بسطت نفوذها الطاغى عليه . وتضيف جيسى قائلة إنه من المحتمل أن تكون هذه الحادثة بداية لميلاد عاطفة المودة والألفة التى نشأت بينهما . ومما يدلنا على أهمية هذه الحادثة أن لورانس أشار إليها فى روايته «أبناء وعشاق» الأمر الذى يؤكد لنا ـ كما أسلفنا ـ أن لورانس يستمد مادته الروائية فى واقع الحياة . واستغرقت كتابة «أبناء وعشاق» عامين . وصدرت هذه الرواية فى عام ١٩١٣ بعد عام واحد من الانتهاء من تأليفها . وعندما فرغ لورانس من كتابتها فى المرة الأولى عرضها على صديقته جيسى تشامبرز لإبداء الرأى فيها . فأنحت عليه باللائمة ووصفت روايته بأنها فاترة ومملة لا حياة فيها . وطلبت منه أن يعيد كتابتها فوافق على ذلك . ولكنه طلب من جيسى أن تدون ذكرياتها عن علاقته الأولى بها حتى يفيد منها فى إعادة كتابة روايته . وأدمج لورانس بالفعل جانبا كبيرا من ذكريات جيسى النابضة بالحياة فى روايته . وعندما عرض النسخة الثانية من «أبناء وعشاق» عليها لاحظت أنه اقترب فيها من الواقع أكثر من ذى قبل كما لاحظت أن ينابيع الحياة قد بدأت تتفجر فيها . ولكن آلمها أنه أغفل الدور الذى لعبته ميريام (وهى الشخصية الروائية التى تمثلها) فى تطور بطل الرواية من الناحية الفنية وأنه غدر بها ورسم صورة مشوهة لها بسبب سيطرة أمه عليه بشكل لم يستطيع الفكاك منه .

وهناك شبه كبير بين مذكرات جيسى التى نشرتها بعنوان «د. هـ لورانس سجل شخصى» بحروف أولى مستعارة ، وما ورد فى رواية

«أبناء وعشاق» من حقائق . ولكن تفسير لورانس لهذه الحقائق يختلف عن تفسير جيسى لها . ومما لا ريب فيه أن التزام لورانس بالواقع لم يمنعه من أن يلبس بعض مادته الروائية المستمدة من هذا الواقع لباسا من الخيال دون أن يحيد عن جوهر الحقيقة من ناحية وبطريقة ناقدة للذات تخلو من الشفقة على النفس من ناحية أخرى . وينبغى أن نذكر أيضا أن لورانس لم يكن يكتفى بفهمه الغريزى الصائب للطبيعة النسائية ، بل كان يطلب إلى النساء اللائى يعرفهن أن يدون ما كن يشعرن به أو ما كان يمكن أن يشعرن به فى بعض المواقف ، وتقول فريدا زوجة لورانس أنه فى المراحل الأخيرة من كتابة روايته «أبناء وعشاق» كان يطلب إليها أن تصف ما عسى أن تحس به أمه فى مواقف معينة . ولعل الصواب لا يجانبنا إذا قلنا إن اسهام جيسى فى هذه الرواية يتلخص فى تسجيل الحقائق وتقديمها إليه حتى يصوغها بخياله فى قالب فنى . ولكن لورانس لم يكن يقبل فى جميع الحالات أن يأخذ بوجهة نظرها . فقد اعترضت هذه الفتاة مثلا على قوله فى «أبناء وعشاق» أن بول (الذى يمثل لورانس) ، وميريام (التى تمثل جيسى) كانا يتحسسان طريقهما بين الفلاسفة وأنهما قرآ معا شوبنهور وهربرت سبنسر ونيتشه . ويضيف لورانس أنه كان يجد فى قراءة هؤلاء الفلاسفة متعة كبيرة فى حين كانت آراؤهم تؤلم الفتاة ألما واضحا . وكان اعتراضها على ذلك أنه لا يصور غرام المراهقين «بول» و«ميريام» من وجهة نظر المراهقة بل أنه يعالجه من وجهة نظر رجل ناضج فى السادسة والعشرين من عمره . وتقول جيسى فى هذا

الصدد إنه ليس من المعقول أن ينصـرف غـلام مثل بول فى السابعة عشرة من عمره وفتاة مثل ميريام فى السادسة عشرة إلى قراءة أعمال الفـلاسفـة . وبالرغـم من أن لورانس لم يسـتجب لهذا الاعتـراض الذى أثارته جيسـى فإنه أجـرى فى روايته كثـيرا من التعديلات بناء على مشـورتهـا دون أن يضيق ذرعـا بنقدها له . ومن العسير علينا أحيـانا أن نتبين فى هذه الـرواية الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال . فنحن نطـالع أن مـيـريـام أسلمت جسـدها باردا لبـول . ولكنه يصـعب علينا أن نتأكد من صدق هذه الواقـعة . ومهما كان الأمر ، فالـذى لاشك فيه أن عاطفة جيسى تشامبرز نحو لورانس تحولت على حد قولها - إلى شىء أقرب ما يكون إلى العبادة الدينية .

ولكن حب د. هـ . لورانـس لجيـسى لم يكن حـبا خـالصا . فـقـد انصرف الكثير من عـواطفـه نحو أخيـها آلان . ويدعـونا هذا إلى أن نشير إلى الكتاب الذى ألفه ميدلتون مرى (الذى كان صديقا حميما له ثم انقلـب عدوا لدودا لـه) تحت عنوان «ابن امـه» وفـيه يهتم مـرى بإبراز أوجـه الشبـه بين شخـصيتى ادجار فى «أبنـاء وعشـاق» ، والمزارع الشـاب جـورج سـاكـسـتـون فى «الطاووس الأبيض» . ويـنـاقش مـرى بوجـه خاص منظرا فى فصـل بعنوان «أنشـودة صداقة» ، فى رواية «الطاووس الأبيض» وفيه نجد أن عددا من الشـبان يستحمون معا فى بركـة فى وقت الحصـاد . ويذكـر مـرى أن هـذا المنظـر يتكـرر فـى «أبناء وعشـاق»حيث نرى بول وادجار - أخى ميريام - يعملان معا وقد ألف الحب بينهما فى جمع حصاد الحشـائش الجافة . ويبنى مرى على

عاطفة الحب التى تؤلف بين الشابين نظرية مفادها أن لورانس كان قبل وفاة والدته يتجه فى حبه إلى الذكور من بنى جنسه . ولكن قد يدعونا إلى التشكك فى سلامة هذه النظرية أمران : ان لورانس كان مغرما بجيسى تشاميرز وأنه كان على علاقة جنسية بامرأة متزوجة فى قرية ايستوود . وليس هناك على أية حال سبيل إلى انكار أن بول فى رواية «أبناء وعشاق» كان يتجنب ميريام فى بادئ الأمر ويتعلق بأخيها ادجار أشد التعلق . كان هذان الغلامان يجتمعان معا فى العصارى ويعملان معا فى فلاحة الأرض عندما يكون الجو صافيا أو فى نجارة الخشب فى حجرة فى أعلى البيت عندما يكون الجو مطيرا . فضلا عن أن بول كان يلقن ادجار كل ما يتعلمه من أخته أنى . وكانت ميريام تتألم حين ترى بول ينصرف عنها إلى رفقة أخيها ادجار . ويقودنا ذلك إلى أن نستعرض موقف د. هـ . لوانس من الشذوذ الجنسى . فبالرغم من أنه يعترف أنه يمكن للرجل أن يجد متعته الجنسية فى معاشرة رجل آخر فإنه يهاجم الشذوذ الجنسى فى كتاباته وأقواله . فقد ذكر لهنرى سافيدج فى عام ١٩١٤ أن متعة الرجل مع الرجل متعة جسدية فقط فى حين أن متعة الرجل بالمرأة جسدية وروحية معا . ومما يدل على نفوره من الشذوذ الجنسى ما ترويه كاترين كارسويل فى كتابها «الحاج المتوحش» فقد سمعته كاترين يقول إنه يعتبر الشذوذ الجنسى خطيئة فى الروح القدس, لا سبيل إلى غفرانها . ويشرح لنا لورانس موقفه بالتفصيل من مسألة الشذوذ الجنسى فى خطاب بعث به إلى برتراند راسل فى عام ١٩١٥ وفيه يقول

إنه يمقت اللواط ويأسف لأن الرجل الحديث لا يسعى إلى المرأة بدافع من الرغبة فى اكتشافها واستكناه المجهول فيها حتى يدخل فى علاقة خلاقة معها ، بل إن هدفه ينحصر أن يستعيد معها احساسا مألوفا من اللذة سبق له أن استمتع به . الأمر الذى يفضى إلى تفشى ممارسة اللواط فى العالم الحديث ، وإلى سعى الرجل الحديث إلى ممارسة العادة السرية بطريقة ملتوية وغير مباشرة مستخدما جسد المرأة كوسيلة يحقق بها غايته . وعندما ننظر إلى لورانس من الناحية النفسية فإننا نذكر على الفور ما يذهب إليه معظم النقاد من أنه كان مصابا بعقدة أوديب بما يتضمنه ذلك من جنوح نحو الشذوذ الجنسى . ورغم أن مرى تراجع بعد خمسة أعوام من كتابه «ابن أمه» عن إلصاق تهمة النزعات الجنسية الشاذة به ، فإننا نرى ناقدا آخر (هو ريتشارد ألد نجتون) يقول إن لورانس كان من الناحية الجنسية طبيعيا بنسبة ٨٥ ٪ وشاذا بنسبة ١٥ ٪ ، ويتناول الناقد جيفرى مايرز فى كتابه «الشذوذ الجنسى والأدب فى الفترة من ١٨٩٠ إلى ١٩٣٠» (١٩٧٧) معالجة د. هـ . لورانس المثلية فى أربع من رواياته : «الطاووس الأبيض» ، «نساء عاشقات» ، «عصا أدون» و«الأفعى ذات الريش» .

لكن يجدر بنا أن نذكر أننا نجد بين النقاد من يعترض على القول بجنوح لورانس نحو المثلية . فقد كتب قسيس تحت اسم مستعار – هو وليم نفرتون – كتابا بعنوان «د. هـ. لورانس والوجود الإنسانى» (١٩٥١) ، يقول فيه إن النقاد بالغوا فى تأكيد مرضه

بعقدة أوديب فقد استطاع بعد وفاة والدته وكتابة روايته «أبناء وعشاق» أن ويتخلص من عقدته بحيث أننا لا نرى فى كتاباته اللاحقة سوى أصداء خافتة لهذه العلة . وهناك تفسير نفسى آخر قد يوضح لنا السبب فى احتفال لورانس بالقوة والفتوة وعنايته البالغة بهما . ويتلخص هذا السبب فى أن هزاله وضعفه البدنى الذى ظل يلازمه، انتهى به إلى أن يتمنى أن يعيش فى عالم الرجولة والقوة والعافية .

وأخيرا يجب أن نعرض لاهتمامات د. هـ. لورانس الأدبية فى السنوات التى قضاها فى نوتنجهام قبل أن يغادرها إلى لندن . ولكن يجب أن نذكر فى هذا الصدد أنه اتجه إلى الرسم قبل أن يبدأ فى الكتابة. وفى العشرة أعوام الأخيرة من عمره زاد اهتمامه برسم الصور . وفى الأماكن المختلفة التى زارها فى انجلترا وأمريكا الجنوبية وإيطاليا ترك لورانس عددا كبيرا من لوحاته فى ايدى الناس الذين عاش بينهم .

وبالرغم مما كانت عائلة لورانس تعانيه من فقر فقد كانت تمتلك مجموعة من الكتب الأدبية اشتراها وليم إرنست . وكانت عائلة جيسى كذلك تولى الأدب اهتمامها . وحين كانت جيسى تشامبرز فتاة صغيرة وقبل أن تتعلم القراءة والكتابة كانت تستمع إلى والدها وهو يقرأ لأمها مسلسلة ورواية توماس هاردى المعروفة «تسى سليل عائلة دربرفيل» التى كانت تنشر تباعا فى نوتنجهام شير جارديان . وعندما أصبح لورانس صديقا

لهذه العائلة بدأ ينظم معها حلقات خاصة لقراءة المسرحيات . واتخذ لورانس فى هذه الحلقات موقف الآمر الناهى . ولكن مستر تشامبرز لم يغضب منه لأنه كان يحبه من ناحية ، ويعرفه معرفة وثيقة من ناحية أخرى . ولكن اراءه حينذاك فى رجال الدين كانت تسبب القلق لمسز تشامبرز . ومما زاد من قلقها أن آراء لورانس فى الدين ودعوته إلى المادية المتشككة بدأت تترك آثارا واضحة فى ابنها آلان .

ولا شك أنه من المفيد أن نتتبع قراءات لورانس فى شبابه مع صديقته جيسى تشامبرز . كانت قراءاتهما المشتركة مصدر متعة لهما ليست لها حدود . قرأ لورانس وجيسى معا «سجين زندا» وروايات رايدر هاجارد الخيالية . ثم ارتفعت قراءتهما إلى مستوى ستيفنسون وكوبر ، وحركت أحداث رواية «لورنا دون» حياتهما إلى الحد الذى جعلهما يتصوران وقائعها حية ماثلة أمام اعينهما . ووجدا فى ديكنز ضالتهما المنشودة ، الأمر الذى حدا بلورانس أن يذكر – وهو نصف جاد ونصف هازل – أن يرى نفسه ممثلا فى شخصية ديكنز المعروفة دافيد كوبر فيلد . وامتدت قراءاته مع جيسى حتى شملت أعمال شكسبير والشعراء الانجليز الغنائيين وأظهر لورانس إعجابه بجورج اليوت وخاصة روايتها «طاحونة على نهر الفلوس» . واستفاد لورانس من علاقته بهوبكن – وهو اشتراكى راديكالى بدأ حياته بالعمل كاتبا فى منجم من مناجم الفحم ثم اسكافيا ثم صاحب محل للأحذية . وملأ هوبكن أسماعه بسيل لا ينقطع من الفولكلور المحلى وحكايات عن عمال المناجم

والمزارع وتاريخ ايستوود . ومن الثابت أن لورانس استمد معظم أسماء شخصياته الروائية من أسماء جزارين وبائعي أصواف وخمور ومزارعين وترزية وقرويين كانوا يعيشون بالفعل في منطقة ايستوود وكان لورانس يعرفهم معرفة شخصية . وتذكر جيسى فى هذا الصدد أنه اشتغل لفترة وجيزة فى محل من محلات جزارة الخنازير حيث كان يقوم بتحرير الفواتير .

وفى أيام الطلب بالجامعة لم ينقطع لورانس عن مطالعة الكتب مع جيسى تشامبرز بدءا بقراءة كتب سهلة بسيطة باللغة الفرنسية ، ثم تدرجا إلى قراءة لوتى وبلزاك وفلوبيرت . وحضر لورانس تمثيلية «غادة الكاميليا» التى كانت سارة برنارد تمثلها حينذاك ، وتركت مشاهدة هذه التمثيلية فى نفسه أثرا عميقا ، فقد اندفع خارج المسرح مضطربا فزعا ، وكتب إلى جيسى يقول لها إنه يخشى على نفسه أن تستعبده امرأة فى يوم من الأيام مثلما استعبدت غادة الكاميليا حبيبها أرمان . وفى تلك الفترة قرأ لورانس مع جيسى كذلك سيرة حياة مارك رذرفورد الذاتية . كما بدأت اهتماماته بالمطالعات الفلسفية ، فقرأ شوبنهور وتأثر به تأثرا بالغا . وكان مغرما بمناقشة آراء هذا الفيلسوف المتشائم مع كل من جيسى وأخيها الآن وانعكس أثر شوبنهور عليه فيما أنتجه من أدب روائى . ويبدو هذا الأثر واضحا فى أولى رواياته «الطاووس الأبيض» وفى رسمه لشخصية أنابل بالذات . وامتد أثر شوبنهور إلى ما أنتجه لورانس بعد ذلك من أدب روائى . ومن الأعمال الفلسفية الأخرى التى قرأها مع جيسى فى شبابه «حياة المسيح» التى كتبها اللاهوتى

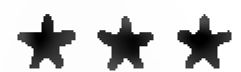
المعروف رينان . ولكن هذا الكتاب لم يرق له على الاطلاق ورغم أن لورانس تأثر بقراءة توماس هكسلى وهيكيل فإن أثرهما فيه لم يدم طويلا . فضلا عن أنه أقبل على قراءة هربرت سبنسر وجيمس ميل باهتمام شديد . وكان لكتابى وليم جيمس «البراجماتية» و «تنوع التجارب الدينية» أثر كبير فيه . وتعرض إيمان لورانس بالدين للاهتزاز بسبب الضربات المتلاحقة التى توالت على أفكاره من جانب المذهب المادى من ناحية والمذهب العقلانى من ناحية أخرى . غير أن إيمانه بوجود الله لم يزايله قط . ورغم نظرته التصوفية فإن مفهومه لله بدا أشد ما يكون غرابة . فالرأى عنده كما يشير لنا ألدوس هكسلى أن الجنس هو سبيل الانسان فى الاتصال بالذات الإلهية . فالجنس إذا مورس بطريقة تلقائية شىء مقدس . وحيث أن الله قوة كونية غامضة ومظلمة (بمعنى أنها تستغلق على الفهم) وحيث أن الجنس أيضا طاقة غريزية غامضة ومظلمة فإن ممارسته بين الرجل والمرأة هو سبيل البشر للاتحاد بالذات الإلهية القدسية السامية ، ومن أبرز قراءات لورانس رواية تولستوى المعروفة «أناكارنينا» التى استأثرت بالكثير من اعجابه فى شبابه وهو إعجاب زايله فيما بعد وتحول إلى احتقار جلى .

وفى العام الثانى من التحاق لورانس بالجامعة خطر له أن يتقدم بثلاث قصص للدخول فى مسابقة لكتابة القصة القصيرة نظمتها جريدة «نوتنجهام شير جارديان» التى خصصت مبلغ ثلاثة جنيهات لكل قصة فائزة ، ونظر لأنه لم يكن يسمح للشخص الواحد بأن يتقدم بأكثر من

قصة تقد تحكى لورانس وراء جيسى وفتاة أخرى ، وتقدم بقصة «مقدمة» التى دفعتها جيسى باسم مستعار هو روزاليند . وقصة «الجورب الأبيض» التى وقعتها صديقة له أخرى . أما لورانس نفسه فقد دخل المسابقة بقصة «أسطورة» ، من بين هذه القصص الثلاث قيض لقصة «مقدمة» ـ التى قدمتها جيسى باسم مستعار ـ أن تفوز بالجائزة ، وفيما بعد ضمن لورانس قصتيه الأخريين «أسطورة» و«الجورب الأبيض» فى أول مجموعة قصصية نشرت له فى عام ١٩١٤ تحت عنوان «الضابط البروسى» .

وعندما أنهى لورانس دراسته فى الجامعة حصل على التقديرات الآتية : التدريس (جيد) ، القراءة (ممتاز) ، الرسم (جيد) الموسيقى (جيد) ، وقرر المشرف عليه أنه ضعيف فى ضبط الفصل ، ولا شك أن ما جاء فى التقرير المكتوب عن سيره الدراسى يلقى ضوءا على شخصيته . يقول التقرير إن مستر لورانس واسع الاطلاع مهذب وإنه يمكن أن يصبح مدرسا ممتازا إذا وضع فى المكان المناسب . وإنه يفشل فى مباشرة التدريس فى الفصول الكبيرة العدد فى مدارس البنين الموجودة فى الأحياء الى تتسم بالفظاظة والخشونة ، ففظاظة الطلبة وخشونتهم كفيلة بأن تفت فى عضده وتصيب تصميمه وعزيمته بالوهن ، وتثير فى نفسه الاشمئزاز ، كما أنه لا ينجح فى تدريس الفصول المتخلفة أو العادية ، فى حين أنه من المؤكد أن يصيب نجاحا فى تدريس الفصول العليا والممتازة وخاصة إذا توفرت لديه حرية التصرف . ويذكر التقرير كذلك أنه إنسان يصعب ارضاؤه ، وأنه بالرغم من طلاقة لسانه فإنه يجد أحيانا عسرا فى العثور على أبسط الكلمات المناسبة للتعبير عما يريد .

إن صورة لورانس لن تتضح إلا إذا ذكرنا كثرة أسفاره فى بلاد العالم المختلفة . فبعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها نراه فى الفترة من ١٩٢٠ حتى ١٩٢٥ ينتقل من ايطاليا إلى سيلان إلى أمريكا ليستقر فى نيومكسيكو وفى تلك الفترة من حياته نظم كاتبنا بعضا من أروع قصائده ومقالاته ودراساته النقدية وكتب الرحلات إلى جانب بعض رواياته . وشاء القدر أن يصاب بمرض عضال أثناء إقامته فى نيومكسيكو فنصحه الأطباء بضرورة العودة إلى أوربا وعاش مدة أخرى فى إيطاليا حيث نشر روايته المثيرة للجدل «عشيق الليدى تشاترلى» عام ١٩٢٨ ، وفى ٢ مارس ١٩٣٠ لفظ لورانس أنفاسه الأخيرة . والجدير بالذكر أنه كان يحلم فى نيومكسيكو بإقامة مستعمرة يمارس فيها أتباعه ومريدوه فلسفته الداعية إلى حياة البداوة والفطرة والتلقائية بعيدا عن بشاعة الحضارة الأوربية . كما أنه سعى إلى القبائل فى استراليا ليجد لديهم ما يفتقده فى هذه الحضارة .



كتب الدوس هكسلى مقالا بالغ الأهمية تناول فيه أدب لورانس وفكره. وهو مقال يتميز بالعمق والأصالة والبصيرة النافذة ، ومن ثم حرصى على تلخيصه لأنه يلقى ضوءا غامرا على مؤلفنا الفكرى بوجه عام وموقفه من الجنس بوجه خاص .

يبدأ هكسلى مقاله بإبراز الجانب الذاتى فى انتاجه الأدبى فيقول إن لورانس يذهب إلى أنه يكتب من أجل نفسه ، الأمر الذى يدل على

ذاتية دوافعه الخلاقة ، ويستطرد هكسلى فيقول إن الكتابة فى حالته قدر ومصير فضلا عن أنها تعينه على شفاء روحه مما تعانيه من أمراض . يقول لورانس فى هذا الشأن : «إن المرء يبدد مرضه عن طريق تأليف الكتب حيث يقدم عواطفه ويكررها حتى يتمكن من السيطرة عليها» .

كان شيطان الفن يتملكه ويحدد خط سيره لدرجة أنه كان يبدأ الرواية دون أن يعلم كيف ينهيها أو حتى كيف يطور أحداثها . كان يترك الأمور تجرى على عواهنها وكانت أحداث الرواية تتطور من تلقاء نفسها وهو يقف أمامها موقف المستسلم ، وقد بلغ استسلامه لشيطان الخلق حدا جعله يقول إنه ليس على المؤلف قبل تأليف عمل خلاق غير أن يبتهل إلى الله ثم يترك الله يتمم العمل الذى بدأه . يقول لورانس فى هذا الصدد : « إننى أشعر دائما كما لو كنت أقف عاريا حتى تحترمنى نار الله العلى القدير ... وإذا أراد المرء أن يكون فنانا فلابد أن يكون متدينا» .

ويعبر الدوس هكسلى عن سخطه على الكتاب الذى ألفه الناقد ميدلتون مرى عن لورانس بعنوان «ابن أمه» لأنه يعنى بتحليل سيرة حياة مؤلفنا فى ضوء آراء سيجموند فرويد فى علم النفس ويتجاهل فنه وعبقريته الخلاقة . ويثنى هكسلى على رأى الناقد الكبير ف . ر . ليفز فى د . هـ . لورانس ، ويذهب إلى ما يذهب هذا الناقد من وجود تشابه عظيم بينه وبين الشاعر الرمزى الكبير وليم بليك . ويشرح ليفز هذا الشبه فيقول إن لورانس كان يملك نفس موهبة بليك فى

معرفة الموضوعات التى تثير اهتمامه ونفس قدرته على التمييز بين عواطفه الخاصة والعواطف التقليدية العامة ونفس الأمانة المروعة المخيفة .

ويسعى هكسلى إلى تحليل موهبة لورانس الأدبية بقوله إنه يتميز بحساسية مفرطة سبق للشاعر وليم وردزورث أن أسماها «مظاهر الوجود المجهولة» كان مؤلفنا دائب الاحساس بأن العالم سر مقدس يستغلق على الأفهام ، وأن هناك شيئا خارج الانسان لا تسمية له غير «الوجود الآخر المظلم» وهو وجود غامض ومعتم وحاضر يتجاوز حدود العقل الواعى للانسان . ويفسر هكسلى موقف لورانس من الجنس فى هذا الضوء . فأهمية التجربة الجنسية فى نظره تتلخص فى الادراك المباشر وغير الذهنى وغير الواعى لهذا الحضور القدسى المتبلور فى بؤرة الظلمة . ومعنى هذا أن التجربة الجنسية جوهر الدين فهى همزة الوصل التى تربط بين ظلمة اللاوعى وظلمة الله التى يعجز الإنسان عن استكناهها . ومعنى هذا أن العملية الجنسية عبارة عن طقس مقدس وممارسة صوفية تصل المرء بالذات الإلهية الغامضة والمجهولة . يقول لورانس فى هذا الشأن : «نحن نعرف الله الأب ، ذلك المجهول الذى لا سبيل إلى معرفته» فى جسد امرأة فهى الباب الذى ندخل ونخرج منه . وفى المرأة تتم عودتنا إلى الأب بطريقة عمياء وغير واعية . أما إذا تسرب التفكير الواعى إلى التجربة الجنسية فهذا هو الشر الإنسانى المستطير . ولهذا السبب هاجم لورانس ممارسة الجنس على طريقة دون جوان وكازانوفا اللذين سعيا إلى التجربة الجنسية بدافع واع للحصول على المتعة

واللذة ، فى حين أن العمـــلية الجنسية إذا أرادت أن تكون صحية فيجب أن تكون عـمـيـاء لا تفكر ولا تدبر أو تخطط . أى أنهـا يجب أن تكون استـجـابة تلقـائيـة لنازع تلقـائى . ومن ثم فـــإن سعى المرء الواعى للحصول على اللذة الجنسية فى نظر مؤلفنا نوع من الكفر والتجديف . وهذا على وجه التحديد ما دعا إليه فى روايته المعروفة «عشيق الليدى تشاترلى» .

ويستطرد هكسلى قائلا إن لورانس كان بكل تأكيد يتمتع بموهبة لا توجد فى السواد الأعظم من البشر الذين يرضون بالعيش فى نفق الحياة المضىء فى حين أنهم يتجاهلون أن هذا النفق ما هو إلا بقعة صغيرة للغـاية يحيط بهـا غـلاف هائل من الأسرار والظلمـة . وأدرك لورانس بموهبته الفذة وجود هذه الظلمة الخارجة عن الوعى البشرى وعن حدود الحياة اليومية المألوفة وسعى ما وسعه السعى إلى تصويرها فى أدبه . ولأن العقل والعلم يزيدان من مساحة البقعة المضيئة أو هذا النفق المضىء فإن لورانس ناصبهما العداء فرفض الإيمان بالعقل ونتائجه بما فى ذلك العلم وكشوفه ذاهبا إلى أن الجسد وليس العقل هو سبيل الإنسان لمعرفة الحقيقة . فالعقل يضل فى حين أن الجسد يهدى . ونحن نراه فى عام ١٩١٢ يقول : «إن الدين العظيم الذى أدين به هو الإيمان بأن الدم والجسد أشد حكمة من العقل . إن عقولنا يمكن أن تخطىء ولكن ما يشعر به الدم ويؤمن به ويقوله لا يأتيه الباطل من خلف أو قدام» . وهو فى مقته للعلم يشبه الشاعر وليم بليك الذى كان يصلى من أجل خلاصه من أفكار عالم الرياضيات الكبير اسـحق نيوتن ؛ وأيضـا يشبه

الشاعر كيتس الذى هاجم نيوتن لأنه قام بتحليل ألوان الطيف . هاجم لورانس توسيع رقعة العلم والمعرفة ، أى زيادة رقعة النور ، لأن هذا يقتضى تقليص منطقة الظلمة الهائلة المحيطة بالإنسان والقضاء أو التقليل من إحساسه بالعجب والدهشة مما فيها من أسرار . يقول هكسلى إن كراهية لورانس للعلم كانت مشبوبة ولا عقلانية فقد حاول هكسلى ذات مرة أن يقنعه بسلامة نظرية التطور فكان رد فعله عنيفا وغير عقلانى ، فقد صاح قائلا : «كذب» . وعندما أصر هكسلى على تقديم البراهين العلمية الدالة على صحة هذه النظرية رفض الاستماع وأشاح بوجهه قائلا : «إننى لا أهتم بهذه البراهين فهى لا تعنى شيئا فى نظرى» ، ثم أضاف مشيرا إلى ضفيرته الشمسية (أى مجموعة الأعصاب الموجودة بين العمود الفقرى والمعدة) وهو يحتج بقوله : «إننى لا أشعر بها هنا» وبعد ذلك تجنب هكسلى أن يناقشه فى أية موضوعات خلافية ومثيرة للجدل . ولهذا فضل لورانس الغرائز العمياء التلقائية على العقل لأن العقل يعرف ، فى حين أن الغريزة التلقائية تعيش .

وينبهنا هكسلى إلى كراهية لورانس للأعمال الفنية المجردة الكاملة التكوين والآثار العظيمة الخالدة على مر الزمان ، ويفضل عليها الأعمال التى تعيش لأجل ثم ينتهى الأمر بزوالها . ولهذا فضل البناء بالطوب النيىء على استخدام الحجارة . فالحجر يبنى الاهرامات التى لا تزول فى حين أن الطوب النيىء قصير العمر . ومن نفس هذا المنطلق نراه يفضل الأغنية الشعبية البسيطة والخفيفة على السيمفونية الكبيرة والمعقدة . ان

الأهرامات والسيمفونيات وشوامخ الفن المجرد تتسم بالكمال والديمومة وهو شيء يتنافى فى رأيه مع طبائع الأشياء الفانية والموقوتة. ويذكر لنا هكسلى أن لورانس اعتاد ألا يصحح كتاباته ويعيد ترتيبها بل يقوم إذا كان غير راض عنها بإعادة كتابتها من جديد ، مثلما فعل فى روايته «عشيق الليدى تشاترلى» التى أعاد كتابتها ثلاث مرات . ويعزو هكسلى امتناعه عن تصحيح كتاباته إلى نفوره من فكرة الكمال المجرد .

ويضيف هكسلى أن موقف لورانس من الأخلاق لا يختلف عن موقفه من الفن . لقد أنحى بعض النقاد عليه باللائمة لافتقار رواياته إلى الشكل فكتب محتجا بأن هؤلاء النقاد يريدون أن يفرضوا على أدبه الروائى الشكل الذى يروق لهم وليس الشكل الذى يريد. ونفس الشىء ينطبق على موقفه من الأخلاق فهو يرى أن المرء مطالب بأن يستحدث لنفسه أخلاقا خاصة به ويعيش بمقتضاها ولا يعيش طبقا لما يريد المجتمع فرضه عليه من مواصفات وتقاليد أخلاقية .

آمن لورانس أن الحياة فن ، وأن فن الحياة أصعب من التأليف والكتابة ، واعتبر انصراف الإنسان الكامل إلى العمل وبذل الجهد المضنى فى أدائه نوعا من الفسق والفجور .فما أسهل أن يلجأ الإنسان إلى بذل الجهد المضنى هربا من الحياة . عندئذ يصبح الجهد الشاق فى رأيه ضربا من الترويح عن النفس وهكذا الحال مع الاستغراق فى التأملات المجردة مثل الاستغراق فى الروحانيات والتأملات السامية النبيلة حول

غاية الوجود وطبيعة الأشياء النهائية وهى الأمور التى أعلى الفيلسوف الفرنسى باسكال من شأنها ورأى فيها تأكيدا لعزة الإنسان وكرامته . وإذا كان باسكال قد رأى فى انشغال المرء عن التفكير فى هذه الأشياء النبيلة نوعا من الابتذال فإن لورانس على النقيض من ذلك رأى فى التفكير والأبدية ومثل هذه المسائل المجردة نوعا من الإسفاف . وفى ايجاز يمكن القول إن لورانس أصر على حياة الفرد التلقائية واستبعد المثل العليا والمبادىء الثابتة كما أنه أصر على أهمية الحدس مستبعدا التفكير الواعى وإعمال العقل .

إن كراهية لورانس للمعرفة المجردة والروحانية الخالصة وإيمانه بقدسية التجربة الجنسية التلقائية جعلته يؤمن بنوع من المادية التصوفية . ومن ثم فهو لا يعتبر كائنا ماديا مثل القمر مجرد كوكب بارد مكون من الصخور لا يختلف عن عالمنا الذى نعيش فيه ، ولكنه رآه من منظور روحى شفاف كشىء ديناميكى مشع مثل الراديوم والفسفور . وذهب إلى أن المادة لا تقل فى حيويتها عن العقل المدرك لها . والرأى عنده أن النتائج الروحية الحية لابد وأن يكون لها أسباب مادية حية . كما أن مشاعر الإنسان العنيفة ورغباته القوية لابد وأن تكون قادرة على إحداث آثار قوية وعنيفة فى العالم الخارجى أو المادة الخارجة . والذى يستثير الروح بقوة وعنفوان لابد وأن يكون له نظير فى العالم الخارجى . ومعنى هذا أنه لم يكن ماديا فحسب بل كان ذاتيا أيضا . ومعنى هذا كذلك أنه آمن باحتمال وجود السحر بصورة أو بأخرى . وليس من شك أن ايمانه بالمادية التصوفية هو

الذى حدا به إلى إعادة صياغة المذهب المسيحى المؤمن بقيامة الجسد . وهذه المادية التصوفية تجعله يرفض فكرة بعث الروح بمعزل عن الجسد .

يقول هكسلى إن لورانس نذر كل كتاباته وجهوده الأدبية لاستجلاء ظلمتين : الظلمة المتركزة داخل الجسد والمتمثلة فيما تتمثل فيه فى الغريزة الجنسية وظلمة العقل المتمثلة فى اللاوعى . وينتقد هكسلى أدبه الروائى بقوله إن لورانس بانتهاجه هذا النهج فرض قيودا لا داعى لها ومعطلة على طاقاته الخلاقة فقد أفضى هذا إلى استبعاد أنشطة الانسان العادية والمألوفة فى دائرة اهتمامه الأدبى كما أفضى إلى تجسيد نظريته فى أعماله الخلاقة مثلما فعل فى روايتيه : «قوس قزح» و «نساء عاشقات» . ويلقى أحد خطاباته الضوء على نظريته فقد كتب فى ٥ يونيه عام ١٩١٤ إلى صديقه إدوارد جارنيت يقول : «على أية حال فإن الجانب الفيزيقى الذى يتجاوز حدود ما هو انسانى يثير اهتمامى أكثر مما يثيره العنصر الانسانى التقليدى والبالى الذى يجعل المرء يرسم شخصياته فى إطار أخلاقى معين على نحو منسق ومنسجم مع نفسه . ولهذا السبب بالذات اعترض لورانس على الاطار الاخلاقى الذى رسمه كل من تورجنيف وتولستوى ودستيوفسكى فى أدبهم .

ويحدثنا هكسلى عن الشكوى المرة التى جأر بها لورانس بسبب احساسه بالوحشة والانعزال عن المجتمع . والغريب أنه كان يتمتع بالقدرة على اقامة علاقات حميمة مع الذين صادفهم فى حياته .

وتصور روايته «حيوان الكانجارو» الصراع بين نزعاته الاجتماعية المتأصلة فى نفسه ونزعته بسبب شيطان الفن نحو العزلة والانفراد . وهو صراع انتهى بغلبة الفنان الراغب فى العزلة على الانسان الراغب فى إقامة صلات مع غيره من البشر . ويعزو هكسلى تجواله فى بقاع العالم المختلفة فى سيلان واستراليا والمكسيك الخ ... إلى احساسه المروع بالوحشة . وكان تجواله هروبا فى النفس بقدر ما كان بحثا عن مجتمع بدائى تلقائى لا تشوبه عيوب ومثالب المجتمعات الأوربية بوجه عام والمجتمع الانجليزى بوجه خاص ... ذلك المجتمع الذى استقر فى وجدانه . ولا غرو فقد كان يحبه ويمقته فى آن واحد . لم يشأ لورانس فى البقاء فى انجلترا بسبب ادراكه أن انشغاله بمشاكلها سوف يدفعه بالضرورة إلى الانخراط فى المنظمات السياسية والمشاركة فى الحياة العامة . فى حين أن شيطان الفن فيه دفعه إلى اختيار حياة الوحدة والوحشة التى انتصرت على رغبته فى الانخراط فى الحياة العامة . يقول لورانس فى هذا الشأن : «من الجائز أن قدرى كتب على أن أجوب العالم وأعرفه . ولكن هذا يثيرنى من خارجى ويترك داخلى منعزلا وأكثر قدرة على تحمل المكاره عن ذى قبل ... إنه شكل من أشكال الهروب من النفس ومن المشاكل الكبرى ... كل هذه الأسفار إلى الأماكن المتوحشة فى الغرب الأمريكى واستراليا العجيبة !

كان هكسلى مفتونا بشخصية لورانس ومسحورا بها منذ أن قابله لأول مرة فى لندن عام ١٩١٥ أثناء تأهبه للسفر إلى فلوريدا لإنشاء مستعمرة

يجرب فيها مع نفر من مريديه حياة البداوة . وهو الأمر الذى باء بالفشل والإخفاق شأن جميع محاولاته لإقامة مجتمعات بدائية فى بقاع أخرى . أعجب هكسلى بشخصية لورانس واحترمها لأنه رأى أنها تختلف عن سائر الشخصيات التى عرفها فى حياته وشعر أن لورانس ينتمى إلى جنس أسمى من جميع معارفه ... أسمى فى الكيف وليس فى النوع . ويضيف هكسلى أن لورانس فى فتراته الأخيرة كان يتحدث كشخص ينازع الردى ويقترب من حافة الموت بسبب اعتلال صحته وإصابته بمرض السل . وكان يبدو وهو يتحدث كإنسان فى غفوة الموت وظلامه ليكشف عن أشياء جميلة وغامضة لا سبيل إلى سبر غورها . ثم أنه كان يتمتع بقدرة فذة على الشعور بمشاعر الحيوان والنبات والزهور . يقول هكسلى فى هذا الصدد :

«بدا أنه يعرف عن طريق تجربته الشخصية أنه يعرف ماذا تكون عليه الشجرة أو زهرة الديزى أو الموجة المتلاطمة أو حتى القمر الغامض نفسه. وكان بمقدوره أن يشعر بمشاعر الحيوان ويخبرك بالتفاصيل الشديدة الاقناع كيف يشعر هذا الحيوان بل كيف يفكر على نحو معتم والمخالف للمألوف فى عالم البشر .

وهذا ما تؤكده شهادة رجل آخر هو فيرنون لى الذى قال عنه إنه يرى مالا يراه البشر بل يرى من الطبيعة والأشياء الخارقة لها ما يعجز غيره عن رؤيته . ومن ثم قدرته غير العادية على حب البشر وكراهيتهم فى آن واحد . كان لورانس ينقل من يتحدث معه إلى عالم علوى يتجاوز حدود الوعى الانسانى . ومن ثم فإن الحديث معه كان تجربة مثيرة

للغاية . يقول هكسلى إن حديث لورانس لم يكن أبدا يبعث على الملل لأن لورانس نفسه لم يعرف الملل مطلقا . فقد كانت الأمور العادية تثير اهتمامه . كان لورانس يطبخ ويرتق الجوارب ويحيك القماش ويحلب البقرة ويتقن الحفر على الخشب والتطريز . وهى نشاطات لم ير أنها تافهة فقد كان يؤديها بحيوية دافقة وكأنه يأتى بجليل الأعمال . غير أن تغيرا أسيفا طرأ عليه عندما بات من المؤكد أن أيامه على الأرض معدودة فقد زالت روحه المعنوية العالية وضحكاته النابضة بالحياة وتحول بأسه إلى شحنة من الغضب والسخرية والوحشة من كل شىء .

رقم الايداع : ٤٩٩٧ / ١٩٩٧
I. S. B. N
977-07-0530-6

كتاب الهلال يقدم

البحث عن العقل

حوار مع
فكر الحاكمية والنقل

بقلم

د . محمد نور فرحات

يصدر : ٥ أغسطس ١٩٩٧


الهلال
أحمد بهاء الدين





د . هـ . لورانس
(١٨٨٥ - ١٩٣٠)

- واحـــد من أبرز أدباء النصف الأول من القـــرن العـــشـــرين ، تركت رواياته بصـمــات واضــحــة على فن الرواية.
- اسـمـه بالكامل دافـيـد هربرت لورانس ، مــولود فى اسرة فـقـيرة تعمل فى المناجم وتعانى من فقر شديد . وتربى تربية دينية متشددة .
- نشـــر روايتـــه الأولى «الطاووس الأبيض» عام ١٩١١، ومن بين أعماله الأخرى الشهيرة «ابناء وعشـاق» ١٩١٣ «قـوس قزح» ١٩١٥ ، «نساء عاشقات» ١٩٢٠، «عـشـيق الليـدى تشـاترلى» ١٩٢٩ ، «العـذراء والغجرى» ١٩٣٠ .
- تعـدد عطاؤه الأدبى فى كتابة الرواية . والدراسة الأدبية، وعرف بغزارة ابداعه ، ومن بين اعماله النثرية المنشورة فى كتاب الهلال : «فانتازيا الغـريزة» ، و «الأدب المكشـوف والبـذاءة» المنشـــوز باسم «الشـــذوذ والابداع» .

هـــذه الــروايـــة

تجيء أهمـيـة الفن فى أنه يحـتمل التأويل والتفسيرات العديدة ؛

وعظماء الأدباء قدموا أعمالهم التى فسرها ملايين القراء بالعديد من وجهات النظر التى تختلف تماما ، أو تقترب من مفاهيم الكاتب ، أو عما يقصده .

وهذه الرواية التى تنشـر لأول مـرة باللغـة العــربيـة للكاتب د . هـ . لورانس من بين الأعمال التى تحتمل التأويلات الكثيرة . لقد كتبها لورانس عام ١٩٣٠ فى أواخر حياته ، وبدت الرواية بمثـابة حـالة ابداعـيـة خـاصـة تعكس كـوابيس المـرض التى كـانت تتـراكم فوقه .

وغـرابة هذه القـصـــة أنهـا هلوسـة رجـــل عـبـقـرى اضناه المرض ، وأدناه من الموت ، فـأصبح مستـمـسـكا فى يـــأس عظيم بتـلابيب الحـيـــاة التى أوشكت على الانطفاء ..

سبق لروايات الهلال ان قدمت أبرز ابداع لورانس كامـــلا مثل «ابنــاء وعشـاق» و «عشـيق الليـدى تشـاترلى» واليوم نقدم «الرجل الذى مـات» . وكأن لورانس كان يتنبأ برحيله .



أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من : أدب ، وقصة ، ودراسة ، وسير ، وبحوث ، وفكر ، ونقد ، وشعر ، وبلاغة ، وعلوم ، وتراث ، ولغات ، وقضايا ، وتاريخ ، واجتماع ، وعلم نفس ، ورحلات ، وسياسة ... إلخ .

صدر من هذه السلسلة :

العنوان	المؤلف
- الإنسان الباهت .	طلبة أحمد الابراهيم
- الحياة مرة أخرى .	نوال مصطفى
- التنويم المغناطيسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- نوم العازب .	محمد حسن الألفى
- من شرفات التاريخ جـ ١ .	د . محمد رجب البيومى
- أم كلثوم .	مجدى سلامة
- المرأة العاملة .	سوزان عبد الحميد أغا
- قادة الفكر الفلسفى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الملامح الخفية (جبران ومى) .	لوسى يعقوب
- عبد الحليم حافظ .	مجدى سلامة
- انقراض رجل .	طلبة أحمد الابراهيم
- الشخصية المتطورة .	يوسف ميخائيل أسعد
- محمد عبد الوهاب .	مجدى سلامة
- الشخصية السوية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الشخصية القيادية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإنسان المتعدد .	طلبة أحمد الابراهيم
- الشخصية المبدعة .	يوسف ميخائيل أسعد
- فكر وفن وذكريات .	لوسى يعقوب
- ساعة الحظ .	محمد حسن الألفى
- سيكولوجية الهدوء النفسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الاعلام والمخدرات .	د . نوال محمد عمر
- من شرفات التاريخ جـ ٢ .	د . محمد رجب البيومى
- الشخصية المنتجة .	يوسف ميخائيل أسعد
- الأسرة مشكلات وحلول .	مجدى سلامة
- ظلال الحقيقة .	طلبة أحمد الابراهيم
- شعرة معاوية . وملك بنى أمية .	عرفات القصبى قرون
- مذكرات خادم .	طلبة أحمد الابراهيم

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع ٨ ، ١٠ ، ١٢ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية - المكتبات ١٠ ، ١١ شارع كامل صدقى بالفجالة - شارع الإسحاقى بمنشية البكرى - روكسى - مصر الجديدة - القاهرة ت : ٢٨٣٥٥٥٤ - ٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨١١٩٧ ج . م . ع / فاكس - 2596650